أسرار التوفيق

اسم الكتاب: أسرار التوفيق
تأليف فضيلة الشيخ : فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٩٨٧٩ /٢٠٢٠.
نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: .
القياس: ١٧X٢٤.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / عادل المسلماني .

٢٠٢٠

الإدارة
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail dar_aleman@hotmail.com

فرعنا في الجمهورية اليمنية
دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

أسرار التوفيق

تأليف فضيلة الشيخ

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمةُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ أشرفِ المرسلين.

أما بعدُ:

إذا كنتَ مشتاقًا إلى وِرْدِ مَنْهَلٍ ... يُبِلُّ الصَّدَى في سَبْسَبٍ قلَّ رائِدُهْ

فدونَكَ حَوْضًا من نميرٍ مسلسلًا ... كأنَّ رحيقَ النَّحْلِ يَمْزُجُ رافِدُهْ

ها هي هديتي تُزَفُّ إليكَ بأبهىٰ حُلَلِها وكامِلِ زينتِها رائقةً ناصِعةً.

مُخضَّرةَ الأوساطِ زانَتْ عقودُها ... بأَحْسَنَ ممَّا زيَّنَتْها عقودُها

فصفرٌ تراقيها وحمرٌ أكُفُّها ... وسودٌ نواصيها وبيضٌ خدودُها

وسمَّيْتُها «**أَسْرارُ التَّوفِيقِ**» تدلُّك علىٰ الطريقِ المهيعِ فمنْ حقِّها أن تقدِّمَها علىٰ غيرِها، وتَخُصَّها بالمنزلةِ، وتزيدَها في الكرامةِ، وأَنْ تُغَيِّبَ عَيبَها عن عينيك إلا أن ترىٰ ما لا عَهْدَ لك بهِ.

فدونَكَ ما نُهْدِي فهلْ أنت قابلٌ ... نضيدًا من الأصْلِ الأصيلِ المُؤطَّدِ

فإنْ وُفِّقْتُ فمن توفيقِ اللهِ ﷻ وإنْ كان غيرُ ذلك فمن نفسي والشيطانِ.

ونسألُ من اللهِ ﷻ أَنْ يتقبَّلَها بقَبُولٍ حَسَنٍ وأنْ يُنْبِتَها نباتًا حسنًا وأَنْ يغفِرَ لي ولوالديَّ. وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتبَهُ

فيصلُ الحاشديُّ

مَكَّةُ ١/ ١/ ١٤٤٠

تعريفُ التوفيقِ

(إذا رميتَ سهامَ العزمِ صائبةً فما رميتَ بل التوفيقُ راميها)[١]

التوفيقُ: جَعْلُ اللهِ فعلَ عبدِهِ موافقًا لما يُحِبُّهُ ويرضاه. قال أبو البقاءِ: التوفيقُ الهدايةُ إلىٰ وِفْقِ الشيءِ وقدْرِهِ وما يوافِقُهُ[٢].

ومعناهُ إصابةُ الحَقِّ، ونيلُ المُبتَغىٰ، والوصولُ إلىٰ رضا اللهِ تَعَالىٰ؛ حيثُ تصيرُ حياةُ المؤمنِ سعادةً ورضا وأمنًا وخيرًا كلُّها؛ لا تُغيِّرها الفِتَنُ، ولا تَعصِفُ بها وساوسُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فيَثبُتُ المؤمنُ علىٰ عقيدتِهِ، ويرضىٰ بقضائِهِ، ويَحْمَدُ رَبَّهُ في سرَّائِهِ وضرَّائِه.

قَالَ أُسْتَاذُنا عَبْدُ الكريمِ العماد - حَفِظَهُ اللهُ -:

وَمَنْ يَحْمَدِ الرَّحْمنَ في كلِّ حالِهِ ودوامَ في مَرضاتِهِ فَمُوَفَّقُ

ومَنْ جَاهَدَ الشيطانَ والنَّفْسَ والهوى فذاكَ لما يَرجو من الخَيْرِ أَسْبَقُ

الفرقُ بينَ التوفيقِ والخُذْلانِ:

التَّوفيقُ هو: الإلهامُ للخَيْرِ، يقالُ: وَفَّقَهُ اللهُ أَيْ أَلْهَمَهُ إيَّاهُ وسَدَّدَ خُطَاهُ وأَنْجَحَهُ فيما سَعَىٰ إليه.

أَمَّا الخذلانُ فمعناه: تَرْكُ الْعَوْنِ، يقالُ خذَلَهُ اللهُ: أي: تخلَّىٰ عن نُصْرَتِهِ وإعانتِهِ،

---

(١) ديوانُ ابنِ زُمُرُّكٍ (٢٦٤).

(٢) التوقيفُ علىٰ مهماتِ التعاريفِ (١١٣).

وفي التنزيلِ: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: وإنْ أرادَ خذلانَكُم وتركَ معونتِكُمْ فلا ناصِرَ لكم.

والخَذولُ صيغةُ مبالغةٍ أي كثيرُ الخُذْلانِ، وهو من يتخلَّىٰ عن نُصْرَةِ صاحبِهِ ومساعدتِهِ في أحرجِ الأوقاتِ، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ أي يُضِلُّهُ ويُغويهِ ويزيِّنُ له الباطِلَ ويُقَبِّحُ له الحقَّ، ويَعِدُهُ الأمانيَّ ثم يتخلَّىٰ عنه وقتَ الحاجةِ فلا ينقذُهُ ولا ينصرُهُ.

التوفيقُ بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ:

مــن هَــداهُ سُــبُلَ الخيــرِ اهْتــدى ... نــاعِمَ البــالِ ومَــنْ شــاءَ أَضَــلّ(١)

قال اللهُ ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، أي: النفسُ ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾.

قال ابنُ زيدٍ: جعلَ فيها ذلكَ بتوفيقِهِ إياها للتقوىٰ وخذلانِهِ إياها للفجورِ. واختارَ الزَّجَّاجُ هذا وَحَمَلَ الإلهامَ علىٰ التوفيقِ والخذلانِ(٢).

قال اللهُ ﷻ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهفُ: ١٧].

أي: من يُوَفِّقُهُ اللهُ للاهتداءِ بآياتِهِ فهو الموفَّقُ إلىٰ الحَقِّ، ومن لم يُوَفِّقْهُ لذلك فلن تَجِدَ له معينًا يرشدُهُ لإصابةِ الحقِّ؛ لأنَّ التوفيقَ والخِذْلانَ بيدِ اللهِ وحْدَهُ.

وأَنَّ الأشياءَ تكونُ بمشيئةِ اللهِ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكويرُ: ٢٩]

---

(١) أشعارُ الشعراءِ الجاهليين (١٠٧).

(٢) السراجُ المنيرُ (٤/ ٥٤٢).

قال البغويُّ: «أَيْ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ المشيئةَ في التوفيقِ إليه وأَنهُمْ لا يَقْدِرُون علىٰ ذلكَ إلا بمشيئةِ اللهِ وفيه إعلامٌ أَنَّ أحدًا لا يعملُ خيرًا إلا بتوفيقِ اللهِ ولا شَرًّا إلا بخذلانِهِ»(١).

التوفيقُ والخذلانُ عند أَهْلِ السُّنَّةِ(٢):

وإذا رأيتَ العبدَ يَتْبَعُ نفسَهُ ... وهواهُ، فاعْلَمْ أَنَّهُ الخذلانُ(٣)

١- **التوفيقُ:**

التوفيقُ عند أهل السنَّةِ هو إعانَةٌ خاصَّةٌ من اللهِ ﷻ للعبدِ بها يَضْعُفُ أَثَرُ النَّفْسِ والشيطانِ وتقوىٰ الرغبةُ في الطاعَةِ ففيه معنىٰ الهدايةِ والإعانةِ الخاصَّةِ.

٢- **الخذلانُ:** الخذلانُ هو سلبُ العبدِ الإعانةَ التي تُقَوِّيهِ علىٰ نفسِهِ والشيطانِ(٤).

ذهبَ الصوابُ برأْيِهِ فكأَنَّما ... آراؤه اشْتُقَّتْ من التأييدِ

فإذا دجَا خطبٌ تبلَّجَ رأيُهُ ... صبحًا من التوفيقِ والتسديدِ(٥)

---

(١) تفسيرُ البغوي (٨/ ٣٥١).

(٢) التوفيقُ والخذلانُ عند الأشاعرةِ خَلْقُ القُدْرةِ علىٰ الطاعةِ فجعلوا التوفيقَ هو القدرةَ والخذلانَ هو عَدَمُ خَلْقِ القدرةِ علىٰ الطاعةِ والذي عليه أهلُ السُّنةِ والجماعةِ أَنَّ التوفيقَ إعانَةٌ خاصَّةٌ من اللهِ والخذلانُ سَلْبُ تلك الإعانةِ. انظر «شرح الطحاويَّة» لصالحِ آلِ الشيخِ (٥٧٧).

(٣) قاله أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الْكَرِيمِ الْعِمَادُ - حَفِظَهُ اللهُ -.

(٤) شرحُ الطحاويةِ لصالحِ آلِ الشيخ. (٥٧٧).

(٥) «الشكوىٰ والعقابُ» (٢١٦).

علاماتُ التوفيقِ

كانت علامةُ تحقيقٍ وقال فمي ... هي المنازلُ لي فيها علاماتُ[١]

للتوفيقِ علاماتٌ كثيرةٌ متىٰ رأيْتَها في رَجُلٍ عرفتَ أَنَّه موفَّقٌ مُسَدَّدٌ مُعانٌ فمن تلك العلاماتِ:

١- الاستمرارُ على عَمَلِ الخَيْرِ:

وداومْ على تقوى الإلهِ وعِلْمِهِ ... تَفُزْ وتَنَلْ مما رَجَوْتَ بَخٍ بَخِ[٢]

من علاماتِ توفيقِ اللهِ لعبدِهِ أَنْ يستَمِرَّ علىٰ عَمَلِ الخيرِ والبِرِّ ويداومَ عليه، فيثمِرَ مع المداومةِ ثمرةً عظيمةً، ويباركَ اللهُ له فيه علىٰ قِلَّتِهِ.

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ الأعمالِ إلىٰ اللهِ أَدْوَمُها وإنْ قَلَّ**»[٣].

ومن دُرَرِ ابنِ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قولُهُ: «مَنْ مشىٰ في طاعةِ علىٰ التَّسْديدِ والمقاربةِ فليبشِرْ، فإنَّه يَصِلُ ويَسْبِقُ الدائِبَ المجتهدَ في الأعمالِ، فليسَتِ الفضائلُ بكثرةِ الأعمالِ البدنيَّةِ، لكنْ بكونِها خالصةً للهِ عَزَّوَجَلَّ صوابًا علىٰ متابعةِ السُّنَّةِ، وبكثرةِ معارفِ القلوبِ وأعمالِها فمَنْ كان باللهِ أَعْلَمَ، وبدينِهِ وبأحكامِهِ وشرائِعِهِ، وله أَخْوفَ وأحبَّ وأرجىٰ، فهو أفضلُ مِمَّن ليسَ كذلكَ وإنْ كان أكْثرَ منه عَمَلًا بالجوارحِ»[٤].

---

(١) «ثمراتُ الأوْرَاق» (١/ ٨٣).
(٢) «الْوَسِيطُ فِي تَراجِمِ أُدَبَاءِ شَنقِيطَ» (٣٦٨).
(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٦٤٦٤).
(٤) المحجةُ في سيرِ الدَّلَجةِ (٥٢ – ٥٣).

فالْفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِصُورَةِ الـ ... أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإيمَانِ
وتفاضُلُ الأعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُو ... مُ بِقَلْبِ صَاحِبِها مِن الْبُرْهَانِ[١]

٢- الإيمانُ والعملُ الصالحُ:

أَخفِ الرَّحيلَ إلى قومٍ وإن بَعُدُوا ... فيهم صلاحٌ لمرتادٍ وإرشادِ[٢]

أعلىٰ مراتبِ توفيقِ اللهِ لعَبْدِهِ أَنْ يُحَبِّبَ إليه الإيمانَ والطاعَةَ، ويُكَرِّهَ إليه الكُفْرَ والمعصيةَ، وهي المرتبةُ التي نالَها أصحابُ النبيِّ ﷺ، وامتنَّ اللهُ بها عليهم في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

قال ابنُ القيمِ رحمَهُ اللهُ:

(فَلَوْلَا تَوْفِيقُهُ لَكُمْ لَمَا أَذْعَنَتْ نُفُوسُكُمْ لِلْإِيمَانِ، فَلَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ بِمَشُورَتِكُمْ وَتَوْفِيقِ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَقَدَّمْتُمْ بِهِ إِلَيْهَا، فَنُفُوسُكُمْ تَقْصُرُ وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ وَلَا تَبْلُغُهُ، فَلَوْ أَطَاعَكُمْ رَسُولِي فِي كَثِيرٍ مِمَّا تُرِيدُونَ لَشَقَّ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ وَلَهَلَكْتُمْ وَفَسَدَتْ مَصَالِحُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، وَلَا تَظُنُّوا أَنَّ نُفُوسَكُمْ تُرِيدُ لَكُمُ الرُّشْدَ والصَّلَاحَ كَمَا أَرَدْتُمُ الْإِيمَانَ، فَلَوْلَا أَنِّي حَبَّبْتُهُ إِلَيْكُمْ وَزَيَّنْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَرَّهْتُ إِلَيْكُمْ ضِدَّهُ لَمَا وَقَعَ مِنْكُمْ، وَلَا سَمَحَتْ بِهِ أَنْفُسُكُمْ)[٣].

---

(١) الْقَصَائِدُ الزُّهْدِياتُ (١/ ٤٥).
(٢) المُعَمَّرون (٤١) للسِّجِسْتانيِّ.
(٣) مدارجُ السالكينَ (١/ ٤١٦).

٣- التوبَةُ:

فيا مَنْ مَدَّ في كَسْبِ الخطايا ... خُطاهُ ألم يإِنْ لكَ أَنْ تتوبا[١]

من توفيقِ اللهِ للعبدِ: أن يوفِّقَهُ للتوبةِ الصادقةِ من المعاصي، او يَحُولَ بينَهُ وبين المعاصي، فلا يستطيعَ أن يَصِلَ إليها، فاللهُ يحبُّ التوبةَ لعبدِهِ قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧﴾ [النساءُ: ٢٧]، بل هو ﷻ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبدِهِ حين يتوبُ.

فعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لَلهُ أفرحُ بتوبةِ العبدِ من رجلٍ نَزَلَ منزلًا وبِهِ مهلكةٌ ومَعَهُ راحلتُهُ عليها طعامُهُ وشرابُهُ فوضَعَ رأْسَهُ فنامَ نومةً فاستيقظَ وقد ذَهَبَتْ راحلتُهُ فطلبَها حتىٰ إذا اشْتَدَّ عليه الحَرُّ والعَطَشُ قال أَرْجِعُ إلىٰ مكانِي الذي كنتُ فيه فأنامُ حتىٰ أموتَ فَرَجَعَ فنامَ نومةً ثم رَفَعَ رأسَهُ فإذا راحلتُهُ عنده عليها زادُهُ وطعامُهُ وشرابُهُ فاللهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ العبدِ المؤمنِ من هذا براحلتِهِ وزادِهِ**»[٢].

قال أستاذنا عبد الكريم العماد حفظه الله:

أذنبتَ وأمرُكَ مَسْتُورٌ ... والأَثَرُ بوجهِكَ مفضوحُ

لا تَقْنَطْ من رحمةِ ربِّي ... بل بابُ التَّوبَةِ مفتوحُ

ومَنْ همَّ بالمعصيةِ وأَعَدَّ العدَّةَ وأغلقَ الأبوابَ وأَرْخَىٰ السُّتورَ، ثُمَّ حِيلَ بَيْنَهُ وبينها فليحْمَدِ اللهَ كثيرًا، وليشكُرْهُ علىٰ ذلكَ، فإنَّ اللهَ أراد به الخَيْرَ، قال ﷻ عن يوسُفَ - عليه الصلاةُ والسلامُ -:

---

(١) مِنْ رَحِيقِ الشِّعرِ (١٠٦).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٤٩)، وَمُسْلِمٌ (رقم ٢٧٤٤).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

وَيُعْجِبُنِي الَّذِي يَقُولُ:

وكَيْفَ تريدُ أَنْ تُدْعَى حَكِيمًا ... وأَنْتَ لِكُلِّ ما تهوى رَكُوبُ
وتَضْحَكُ دائبًا ظَهْرًا لبَطْنٍ ... وترتَكِبُ الذنوبَ ولا تَتُوبُ(١)

٤- الدعوةُ إلى اللهِ:

أَدْعُو إِلَى اللهِ فَهَلْ مِنْ مُجِيبْ ... إِلى ذَرى رَحْبٍ وَمَرْعًى خَصِيبْ(٢)

مِنْ تَوْفِيقِ اللهِ لِلْعَبْدِ: أَنْ يُوَفِّقَهُ لِلدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ تَعَالَىٰ، وتَعْلِيمِ النَّاسِ الْخَيْرَ، فَالدَّعْوَةُ إِلَىٰ اللهِ هِيَ مُهِمَّةُ الْأنبياءِ وَالرُّسُلِ وَالْمُوَفَّقِينَ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَيَكْفِي ثَناءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَيهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]، وعن سهلِ بنِ سَعْدٍ الساعديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**واللهِ، لأنْ يُهْدَىٰ بهُدَاكَ رَجُلٌ واحدٌ خيرٌ لَكَ من حُمْرِ النَّعَم**»(٣).

مُنَايَ مِنَ الدُّنيا عُلُومٌ أَبُثُّهَا ... وأَنْشُرُهَا في كُلِّ بادٍ وحاضرِ
دعاءٌ إلى الْقُرآنِ والسُّنَنِ الَّتِي ... تَنَاسَى رجالٌ ذِكْرُهَا في المحَاضِرِ(٤)

---

(١) لُبابُ الآدابِ (٤٢٣).

(٢) مَجاني الأدبِ (٦/ ١١٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٨٣)، ومسلمٌ (٢٤٠٦).

(٤) «سِيَرُ أعلامِ النبلاءِ» (١٣/ ٣٨٣).

٥- حُسْنُ العِشْرَةِ:

هُــمُ حَلُّــوا مــن الــشَّرَفِ المعلَّــى ومن حُسْنِ العشيرةِ حَيثُ شاؤوا(١)

من علاماتِ توفيقِ اللهِ للعبدِ: حُسْنُ عِشرتِهِ لأهلِهِ، عن عائشةَ قالتْ: قال رسولُ الله ﷺ: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ وأنا خيرُكم لأهلي**»(٢)، فمن قَضىٰ حوائِجَ أهلِهِ وقدَّمَها علىٰ الأصدقاءِ والأصحابِ كان موفَّقًا مُسَدَّدًا، لأنَّ حقَّهم أولىٰ وأوجَبُ من غيرهم.

هـي الـضِّلَعُ العوجـاءُ لـستَ تقيمُهـا أَلا إنَّ تَقْــوِيمَ الــضُّلُوعِ انْكِــسَارُهَا
أيَجْمَعْـنَ ضَـعْفًا واقْتِـدَارًا عَلى الْفَتَى أَلَـيْسَ عَجْبًـا ضَـعْفُهَا واقْتِـدَارُهَا(٣)

٦- تَذَكُّرُ الموتِ:

وقــد فــارقَ النــاسُ الأحبــةَ قبلَنــا وأعيــا دواءُ المــوتِ كُــلَّ طبيــبِ(٤)

من علامةِ التوفيقِ تذكُّرُ الموتِ كما قيل إنَّما علامةُ التوفيقِ أَنْ يكونَ الموتُ نُصْبَ عينيك، ولا تَغْفَلَ عنه ساعةً، فليكُنِ الموتُ علىٰ بالك يا مسكينُ فإنَّ السَّيْرَ حادثٌ بك، وأنت غافلٌ عن نفسِكَ، ولعلَّكَ قد قاربتَ المنزلَ، وقَطَعْتَ المسافَةَ فلا يكن اهتمامُك إلَّا بمبادرةِ العملِ، اغتنامًا لكل نَفَسٍ أمهلتَ فيه»(٥).

---

(١) زَهرَةُ الأكَمِ (١/ ١٦٧).

(٢) أخرجَهُ ابنُ ماجَه (١٩٧٧) وصحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ سُنَنِ ابنِ ماجَه (١٦٠٨).

(٣) ذمُّ الهوىٰ لابنِ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللهُ (١٧٣).

(٤) المتنبي ما لَهُ وما عليه (١٣٢).

(٥) تفسيرُ الثعالبيِّ (٥/ ٣٧٤).

يـــا غـــافلًا عَـــنْ سَـــاعَةٍ مَقْرُونَـــةٍ بِنَـــوَادِبٍ وصـــوارخٍ وثَوَاكِـــلِ
قَـدِّمْ لِنَفْـسِكَ قَبْـل مَوْتِـكَ صَـالِحًا فالْمَوْتُ أسْرَعُ من نُزُولِ الهَاطِلِ(١)

٧- حُسْنُ الخاتمةِ:

فحـافِظْ علـى ديـنِ الهُـدَى فلَعَلَّـهُ يكـونُ ختـامَ العُمْـرِ عنـد انتهائِـهِ(٢)

ومن علاماتِ التوفيقِ أنْ يموتَ المؤمِنُ وقد خَتَمَ حياتَهُ بخيرِ أعمالِهِ مسلمًا للهِ ظاهرًا وباطنًا.

فَعَن أَنَسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ خيرًا استعمَلَهُ قَبْلَ موتِه.**

قالوا: يا رسولَ اللهِ! وكيفَ يستعمَلُهُ؟

قال: **يوفِّقُهُ لعملٍ صالحٍ ثمَّ يقبضُهُ عليه**»(٣).

وعن عمرو بنِ الحميد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا عسَلَهُ قبلَ موتِهِ**».

قيل: وما عسلُهُ قبل موتِهِ؟.

قال: «**يُفْتحُ له عملٌ صالحٌ بين يدي موتِهِ حتىٰ يرضَىٰ عنه**»(٤).

---

(١) القصائدُ الزهدياتُ (٢/ ١١٥).

(٢) «ديوانُ ابنِ مَشَرَّفٍ» (٧٨).

(٣) (صَحيحٌ) أخرجه ابنُ حبانَ في «صحيحه» (٣٤٢) وصححه الألبانيُّ في.

(٤) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ ابنُ حبَّانَ في «صَحِيحِه» (٣٤٤) وصححه الألباني في «الصَّحِيحةِ» (١١١٤).

وعن أبي أمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا طَهَّرَهُ قبل موتِهِ**».

قالوا: يا رسولَ اللهِ! وما طَهُورُ الْعَبْدِ؟

قال: «**عَمَلٌ صالحٌ يُلْهِمُهُ إِيَّاهُ حتىٰ يَقْبِضَهُ عَلَيْهِ**»(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان غلامٌ يهوديٌّ يخدُمُ النبيَّ ﷺ فمَرِضَ، فأتاهُ النبيُّ ﷺ يعودُهُ، فقَعَدَ عند رأسِهِ»، فقال: «**أَسْلِمْ**»، فنظَرَ إلىٰ أبيهِ وهو عنده، فقالَ لَه: أَطِعْ أبا القاسِمِ ﷺ، فأسْلَمَ.

وخرجَ النبيُّ ﷺ وهو يقولُ: «**الحَمْدُ للهِ الذي أنقذَهُ من النارِ**» وفي روايةٍ: «فلمَّا ماتَ»، قال: «**صلُّوا علىٰ صاحِبِكمْ**»(٢).

وقال أستاذنا عبد الكريم العماد حفظه الله:

ولا أعـرفُ التوفيـقَ في النـاسِ مثلمـا أراهُ عيانًـا عنـد حُـسْنِ الخـواتمِ

---

(١) (صَحِيحٌ) أَخرجَهُ الطَّبَرانيُّ فِي «الكبيرِ» (٧٩٠٠) وصحَّحَهُ الألباني في «صحيحِ الجامعِ» (٣٠٦).
(٢) رواهُ البخاريُّ (١٣٥٦)، وأحمدُ (٣/ ٢٦٠) والروايةُ لَهُ.

علاماتُ الخُذْلانِ

وكُنْـتُ أرى لـي في الـشبابِ علامـةً فـصِرْتُ وإِني مُنْكِـرٌ لعلامتـي[١]

الخذلانُ هو الفتنةُ بعينِهِ وأَنْ يُنْكِرَ الإنسانُ ما كان يَعْرِفُ من الحقِّ ويعرفُ ما كان ينكِرُ من الباطِلِ.

قال حذيفةُ بنُ اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الضلالَةَ حَقُّ الضلالةِ أَنْ تعرفَ ما كنتَ تُنكِرُ وتنكِرَ ما كنت تَعْرِفُ»[٢].

وسُئِلَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ما علاماتُ الخذلانِ؟**

قال: **أن يَسْتَقْبحَ الرجُلُ ما كان يَسْتَحْسِنَ ويَسْتَحْسِنَ ما كان قبيحًا**»[٣].

(١) «موسوعة القصائد الزهديات» (١/ ٥٤٩).

(٢) موسوعة الألباني في العقيدة (٥/ ٦٤٧).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ٢١٤).

أسبابُ التوفيقِ

أسبابُ التوفيقِ جمَّةٌ غزيرةٌ وسوفَ نقتصرُ علىٰ ذكرِ أهمِّها وأعظمِها أثرًا فمن تلكَ الأسبابِ ما يأتي:

١- الإخلاصُ والمتابعةُ:

إذا لـــم يَكُـــنْ للهِ فعلُـــكَ خالـــصًا ... فكُـــلِّ بنـــاءٍ قـــد بَنَيـــتَ خـــرابُ

من أعظمِ أسبابِ التوفيقِ تحقيقُ شروطِ العبادةِ والتي لا يَقْبَلُ اللهُ عملًا إلا بها.

وهما شَرْطان:

الشرطُ الأولُ - وهو الإخلاصُ - ذُكرَ في حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ قال اللهُ ﷻ: «**أنا أغنَىٰ الشركاء عَنِ الشِّركِ، من عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيه معي غيري، تركتُهُ وشِركَهُ**»(١).

قوله: «**تركْتُهُ وشِرْكَهُ**»: الضمير راجعٌ إلىٰ الذي يعملُ، والمرادُ بـ (شركَهُ): عملُهُ الذي أشركَ فيه غيرَ اللهِ ﷻ؛ يعنِي: أجْعَلُ ذلك الشخصَ وعمَلَهُ مردودًا من حضرتي ما دامَ فِي الشِّرْكِ والرياءِ، وإذا تَرَكَ الشِّرْكَ والرياءَ، وأخلصَ لي العملَ قبلتُهُ»(٢).

والشرطُ الثاني - وهو المتابعَةُ -: وقد جاء في كتابِ اللهِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساءُ: ١١٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (١/ ١٠٩).

فقولُ اللهِ ﷻ: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نَتْرُكُهُ وما توجَّهَ إليه».

وقد جَمَعَ اللهُ ﷻ بين هذين الأَصْلَيْن في قولِهِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكَهْفُ: ١١٠].

وهذانِ رُكْنا العملِ المُتَقَبَّلِ أَنْ يكونَ صوابًا خالصًا فالصوابُ: أنْ يكونَ علىٰ السُّنَّةِ وإليه أشارَ بقولِهِ: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

والخالصُ: أن يَخْلُصَ من الشركِ الجليِّ والخفيِّ، وإليه أشارَ بقولِهِ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[(١)].

ومن المحالِ أن يصحبَ التوفيقُ رجلًا واقعًا في الشركِ والرياءِ فأوَّلُ طريقِ التوفيقِ لزومُ هذين الأصلين والتي لا تصحُّ أيُّ عبادةٍ إلا بهما وهما الإخلاصُ والمتابعة.

ويا للهِ كم للإخلاصِ والمتابعةِ من أثرٍ علىٰ توفيقِ اللهِ لعبدِه.

فمن حَقَّقَ هذين الأصلين فليبشرْ بالخيرِ العاجِلِ والآجلِ.

قال ابنُ بازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن صَدَقَ مع اللهِ وأخلَصَ للهِ؛ وفَّقَهُ اللهُ وأعانَهُ، وبارَكَ في جهودِهِ، وهدىٰ به الأمةَ، وجعل له لسانَ صِدْقٍ في العالمين بسبب صدقِهِ وإخلاصِهِ»[(٢)].

ولقد أحسن الذي يقولُ:

شــرطُ قَبــولِ الــسَّعْيِ أن يجتمعــا فيــــه إصـــــابةٌ وإخـــــلاصٌ معًـــا

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥٢٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٢٧).

للهِ رَبِّ العـــــرشِ لا ســـــواه موافِـقُ الـشَّرْعِ الـذي ارتـضاهُ[١]

٢- صحةُ التوحيدِ:

(وَلـــستُ مليكًـــا هازمًـــا لنظيـــرِهِ وَلكنَّـهُ التَّوْحِيـدُ للـشِّركِ هـازِمُ)[٢]

ومن أسبابِ توفيقِ اللهِ لعبدِهِ صحَّةُ التوحيدِ والتوحيدُ الحقَّ هو إفرادُ اللهِ - تعالىٰ - بما يختصُّ به من الربوبيةِ والألوهيةِ والأسماءِ والصفاتِ، هو أَنْ يشهدَ الموحِّدُ قيُّومِيَّةَ الربِّ تعالىٰ فوقَ عرشِهِ، وأنَّهُ سبحانَهُ يُدبِّرُ أمرَ عبادِهِ وحدَهُ، فلا خالِقَ ولا رازقَ، ولا معطيَ ولا مانعَ، ولا مميتَ ولا محييَ، ولا مدبِّرَ ولا محييَ، ولا مدبِّرَ لأمرِ الملْكِ ظاهرًا وباطنًا - غيرُهُ، فما شاءَ كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ، لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِهِ، ولا يجري حادثٌ إلا بمشيئتِهِ، ولا تسقُطُ ورقةٌ إلَّا بعلمِهِ، ولا يعزُبُ عنهُ مثقالُ ذرةٍ في السماواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلَّا أحصاها عِلمُه، وأحاطتْ بها قدرتُهُ، ونفذتْ بها مشيئتُهُ، واقتضتْها حِكمتُهُ.

قَالَ أُسْتَاذُنَا عَبْدُ الْكَرِيمِ الْعِمَادُ - حَفَظَهُ اللهُ -:

يـــا ربِّ لـــم أنكـــرْ ذُنـــوبي إنَّمـــا أرجـــوكَ أَنْ ألقـــاكَ بالتوحيـــدِ

قال آخر:

ألا إنَّمـــا التوفيـــقُ إنْ كنـــتَ أهلَـــهُ مراعـــاةُ حـــقِّ اللهِ في الـــسِّرِّ والجَهْـــرِ
بتوحيـــــدِهِ في ذاتِـــــهِ وصـــــفاتِهِ وأفعالِهِ - أيضًا - وفي النَّهْيِ والأَمْرِ[٣]

---

(١) «الأبيات الجامعة» (٨).

(٢) الْحَمَاسَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ (١/ ٥٣٣).

(٣) الْحَمَاسَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ (١/ ٥٣٣).

٣- الإيمانُ بِقَدَرِ اللهِ وقضائِهِ:

وكُــلَّ الــذي قــد قَــدَّرَ اللهُ واقــعٌ ... ومــا لَــمْ يقــدِّرْهُ فلــيسَ بواقِــعِ(١)

من أسبابِ التوفيقِ اليقينُ أَنَّ قَدَرَ اللهِ نافذٌ لا محالةَ، وأنَّ ما أصابَ الإنسانَ لم يكنْ لِيُخْطِئَهُ، وما أخطأَهُ لم يكنْ ليصيبَهُ، جَفَّتِ الأقلامُ وطُوِيَتِ الصُّحُفُ. قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديدُ: ٢٢ - ٢٣]، وقال الله - سبحانه وتعالىٰ -: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

ولله دَرُّ ابنِ الروميِّ رَحِمَهُ اللهُ حين قال:

طــامِنْ حَــشَاكَ فــإنَّ دهــرَكَ موقــعٌ ... بِــكَ مــا تخــافُ مــن الأمــورِ وتكْــرَهُ

وإذا خَــشِيتَ مــن الأمــورِ مقــدَّرًا ... وفَــرَرْتَ منــه فَنَحْــوَهُ تَتَوَجَّــهُ(٢)

إن الركونَ للصبرِ في مثلِ هذا المَقام أمرٌ محمودٌ بلْ واجبٌ لأَنَّ مقاديرَ اللهِ نافذةٌ سواءً رَضِيَ العبدُ أم سَخِطَ، صَبَرَ أم جَزِعَ، ولكن العاقلَ ينبغي أنْ يتحلَّىٰ بالصبرِ حتىٰ لا يُحْرَمَ المثوبةَ، وإلا ستَؤولُ به السُّنَنُ الكونيةُ إلىٰ صَبْرِ الاضطرارِ الذي لا قيمةَ له في دينِ الله كما قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ**»(٣).

---

(١) رَوْضَةُ الْعُقَلاءِ (١١٢).

(٢) التَّذْكِرَةُ الْحَمْدُونِيَّةُ (٧/ ٣٣).

(٣) رواهُ الْبُخَارِيُّ (١٢٨٣) وَمُسْلِمٌ (٩٢٦).

٤- حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ:

يــا أيهــا العبــدُ العَبــوسُ المبتلــى أحــسنْ بربِّــكَ في الأمــور ظنونــا[١]

حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ من أسبابِ التوفيقِ وهو عبادةٌ قلبيةٌ جليلةٌ لا يتمُّ إيمانُ العبدِ إلا بِهِ لأَنَّهُ من صميمِ التوحيدِ وواجباتِهِ، وحسنُ الظَّنِّ باللهِ هو ظَنٌّ ما يليقُ باللهِ تعالىٰ واعتقادُ ما يَحِقُّ بجلالِهِ وما تقتضيهِ أسماؤُهُ الحسنىٰ وصفاتُهُ العليا مما يؤثِّرُ في حياةِ المؤمنِ علىٰ الوَجْهِ الذي يُرْضِي اللهَ تعالىٰ، وتحسينُ الظنِّ باللهِ تعالىٰ أَنْ يَظُنَّ العبدُ أَنَّ اللهَ تعالىٰ راحِمُهُ وفارِجُ هَمِّهِ وكاشِفُ غَمِّهِ وذلك بتدبُّرِ الآياتِ والأحاديثِ الواردةِ في كَرَمِ اللهِ وعَفْوِهِ وما وَعَدَ به أَهْلَ التوحيدِ.

فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي**»[٢].

قال ابنُ حَجَرٍ رحِمَهُ اللهُ: «أي قادرٌ علىٰ أَنْ أعْمَلَ به ما ظَنَّ أَنِّي عامِلٌ بِهِ»[٣].

يقولُ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: «فأكْثَرُ الخَلْقِ بلْ كُلُّهُمْ إلا مَنْ شاءَ اللهُ يظنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ السُّوءِ؛ فإنَّ غالِبَ بني آدمَ يعتقدُ أَنَّهُ مبخوسُ الحَقِّ، ناقِصُ الحَظِّ، وأَنَّهُ يستحقُّ فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولسانُ حالِهِ يقولُ: ظَلَمَني رَبِّي ومنعني ما أَستحِقُّ، ونَفْسُهُ تَشْهَدُ عليه لذلكَ، وهو بلسانِهِ ينكِرُهُ ولا يتجاسَرُ علىٰ التصريحِ به ومَنْ فَتَّشَ نَفْسَهُ وتَغَلْغَلَ في معرفَةِ دفائِنِها وطواياها، رأىٰ ذلك فيها كامنًا كُمُونَ النارِ في الزِّنادِ، فاقْدَحْ زِنادَ مَنْ شِئْتَ ينبِئْكَ شَرارُهُ عَمَّا في زِنادِهِ، ولو فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ، لرأيتَ عنده تعتُّبًا

---

(١) قاله أُستَاذُنا عَبْد الْكَرِيمِ الْعِمَادُ - حَفظَهُ اللهُ -.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٧٥).

(٣) فَتْحُ الْبَارِيِّ [١٧/ ٣٩٧].

علىٰ القَدَرِ وملامَةً له، واقتراحًا عليه خلافَ ما جرىٰ به، وأَنَّهُ ينبغي أن يكونَ كذا وكذا، فمُسْتَقِلٌّ ومستكثِرٌ، وفَتِّشْ نَفْسَكَ هل أَنْتَ سالمٌ من ذلك:

فإنْ تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمةٍ ... وإلا فإنِّي لا إخالُكَ ناجيًا»[١].

ويعجبني الذي يقولُ:

أَحْسِنِ الظَّنَّ بربٍّ عَوَّدَكْ ... حَسَنَ الأمْسِ وسَوَّى أَوَدَكْ

إِنَّ ربًّا كَانَ يَكْفِيكَ الَّذِي ... كَانَ بالأَمْسِ سيكفيكَ غَدَكْ[٢]

٥- التوكُّلُ على اللهِ:

توكَّلْ على الرَّحمنِ في كُلِّ حاجةٍ ... طَلَبْتَ فإنَّ اللهَ يقضِي ويَقْدِرُ[٣]

«التوكُّلُ علىٰ اللهِ من أَعْظَمِ أسبابِ التوفيقِ بل هو من أَعْظَمِ واجباتِ التوحيدِ والإيمانِ. وبِحَسَبِ قُوَّةِ توكُّلِ العَبْدِ علىٰ اللهِ يقوىٰ إيمانُهُ ويَتِمُّ توحيدُهُ، والعبدُ يَضْطَرُّ إلىٰ التوكُّلِ علىٰ اللهِ والاستعانةِ به في كُلِّ ما يريدُ فعلَهُ أو تركَهُ من أمورِ دينِهِ أو دنياه»[٤].

و«حقيقةُ التوكُّلِ علىٰ اللهِ: أَنْ يعلمَ العبدُ أَنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ، وأَنَّهُ ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لم يشأْ لم يَكُنْ، وأَنَّهُ النافِعُ الضارُّ المعطي المانِعُ، وأنه لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ فبعدَ هذا العلمِ يعتمدُ بقلبِهِ علىٰ رَبِّهِ في جَلْبِ مصالِحِ دينِهِ ودنياه، وفي دَفْعِ المضارِّ، ويثِقُ غايةَ الوثوقِ بربِّهِ في حصولِ مطلوبِهِ، وهو مع هذا باذِلٌ جَهْدَهُ، في فعلِ الأسبابِ النافعةِ. فمتىٰ استدامَ العَبْدُ هذا العلمَ وهذا الاعتمادَ والثقةَ فهو المتوكِّلُ علىٰ اللهِ

(١) [زَادُ المعادِ ٣/ ٢٣٥].
(٢) الْجَلِيسُ الصَّالِحُ (٣٢).
(٣) الْقَوْلُ السَّدِيدُ/ ١١٧.
(٤) الْقَوْلُ السَّدِيدُ/ ١١٧، ١١٨.

حقيقةً، ليُبْشِرْ بكفايةِ اللهِ له ووعدِهِ المتوكِّلين، ومتىٰ عَلَّقَ ذلكَ بغيرِ اللهِ فهو شِرْكٌ، ومن توكَّلَ علىٰ غيرِ اللهِ وتعلَّقَ به وُكِلَ إليهِ وخابَ أَمَلُهُ»(١).

توكَّـــلَ علـــى اللهِ في النائبـــاتِ ... ولا تَبْـــغِ فيهـــا ســـواهُ بـــديلا
وثِـــقْ بجميـــلِ صـــنيعِ الإلـــهِ ... فمـــا عـــوَّد اللهُ إلا جَمـــيلا(٢)

٦- التَّبَرُّؤُ مِنَ الحَوْلِ والقُوَّةِ إلَّا باللهِ:

قُـــوَّةُ اللهِ إن تَوَلَّـــتْ ضَـــعيفًا ... تَعِبَـــتْ في مِراسِـــهِ الأَقوِيـــاءُ(٣)

من أسبابِ التوفيقِ التبرُّؤُ من الحَوْلِ والقوةِ إلا باللهِ فما طُلِبَ من اللهِ ﷻ شيءٌ بوسيلةٍ أعظمُ من وسيلةِ التبرُّؤِ من الحَولِ والقوةِ فعَنْ أَبي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلا أَدُلُّكَ عَلَىٰ كَلِمَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ - أَوْ قَالَ - عَلَىٰ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟**» فَقُلْتُ: بَلَىٰ. فَقَالَ: «**لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا باللهِ**»(٤).

أي: لا أستطيعُ تحوُّلًا ولا تصرُّفًا بنيَّةٍ ولا فِعْلٍ ولا قَوْلٍ إلا بقوَّتِكَ التي جعلتَ فيَّ أو تَجْعَلُ، ولا قوةَ لي في شيءٍ من أمري إلا بما جعلتَ فيَّ من قوَّتِكَ، وكذلك سائرُ الخَلْقِ(٥).

قال الشاعرُ:

افـــزعْ إلـــى البـــاري وكُـــنْ ... ممـــا جنَيْـــتَ علـــى وجَـــلْ

---

(١) أَحسَن ما سَمِعْتُ (١٠).
(٢) الأَشْبَاهُ والنَّظَائِرُ (٨٣).
(٣) مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ (١٠/ ١٢١٩).
(٤) رَواهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٤).
(٥) التَّوضِيحُ لِشَرحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٩/ ٢٣).

وارجُ الإلـــــهَ فلـــــمْ يَخِـــــبْ راجـــي الإلـــهِ عـــلَا وَجَـــلْ[١]

وقال آخَرُ:

إلهـي وخلَّاقـي وحِـرْزي ومَـوْئلي إليـكَ لـدى الإعـسارِ واليُـسْرِ أفـزَعُ
إلهـي لـئِن جَلَّـتْ وجمَّـتْ خَطيئتـي فعفـوُك عَـنْ ذَنْبـي أجَـلُّ وأَوسَـعُ[٢]

٧- اليقينُ باللهِ:

كَـــرَمُ الفَتَـــى التقـــوى وقوَّتُـــهُ مَحْـضُ اليقـينِ ودينُـهُ حَـسَبُهْ[٣]

ومن أسبابِ التوفيقِ اليقينُ باللهِ وهو الاعتقادُ بأَنَّ كُلَّ ما في الكونِ مُسيَّرٌ بحكمةِ اللهِ وتدبيرِهِ، والثقةِ باللهِ، والاستسلامِ لأمرِهِ، واستمدادِ القوةِ منه سبحانه؛ فلا يَخافُ المؤمنُ من غَدِهِ؛ لأن النفعَ والضُّرَّ لا يتحققُ إلا بمشيئتِهِ ﷻ.

حَكِّـــمْ نَبِيَّـــكَ وارْضَ كُـــلَّ سُـــنَّتِهِ مـع اليقـينِ وحَـوْلَ الـشَّكِّ لا تَحُـمِ
واعْضُضْ عليها وجانبْ كُلَّ محدثَةٍ وقُـلْ لـذي بِدْعـةٍ يـدعوكَ لا نَعَـمِ[٤]

٨- البراءةُ من البِدَعِ وأَهْلِها:

إنْ كنـــتَ ترغَـــبُ في اتبـــاعِ الـــسُّنَّةِ فارغَبْ؟ فديتُكَ؟ عن طريقِ البدعَةِ[٥]

ومن أسبابِ التوفيقِ البراءَةُ من البِدَعِ وأَهْلِها وتُعْرَفُ البِدَعُ بأَنَّها كلُّ ما أُحْدِثَ في

(١) دوَاوينُ الشِّعْرِ العَربيِّ (٨٥/ ٤٣٨).
(٢) «دَوَاوينُ الشِّعرِ العربيِّ» (١١/ ١٩٣).
(٣) الازْدِهَارُ (١٩).
(٤) مجموعةُ الْقَصائِدِ الزُّهْدِياتِ (٢/ ٤٤٥).
(٥) أخبار وتراجم أندلسية (١١٩).

الشَّرْعِ بغيرِ دليلٍ، فعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ ﷺ: «**وشرُّ الأمورِ مُحْدثاتُها وكُلُّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ وكُلُّ بدعةٍ ضلالةٌ وكُلُّ ضلالةٍ في النارِ**»(١).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ**»(٢).

قال ابنُ رَجَبٍ في شرحِ هذا الحديثِ: وهو أَصْلٌ عظيمٌ من أصولِ الإسلامِ، وهو كالميزانِ للأعمالِ في ظاهرِها، كما أنَّ حديثَ: «**إنما الأعمالُ بالنياتِ**»(٣) ميزانٌ للأعمالِ في باطِنِها، فكما أنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا يُرادُ به وَجْهُ اللهِ تعالىٰ فليس لعامِلِهِ فيه ثوابٌ، فكذلك كُلُّ عملٍ لا يكونُ عليهِ أمرُ اللهِ ورسولِهِ، فهو مردودٌ علىٰ عامِلِهِ، وكلُّ مَنْ أَحْدَثَ في الدينِ ما لم يأْذَنْ به اللهُ ورسولُهُ، فليسَ من الدينِ في شيءٍ(٤).

قال أستاذنا عبد الكريم العماد حفظه الله:

وأقبحُ الذنبِ في الدنيا وأشنَعُهُ ... الشركُ والظلمُ والبهتانُ والبِدَعُ

والبدعةُ في الجملةِ أعظمُ من كبائرِ الذُّنوبِ، فالعاصي يُقارِفُ المعصيةَ وهو خائفٌ من اللهِ يَشعُرُ بالتأثُّمِ، فتجِدُهُ يُحدِّثُ نفسَهُ بالتوبةِ، بخلافِ المبتَدِعِ، وهنا مَكْمَنُ الخطَرِ؛ فهذه الشُّبَهُ التي يستدِلُّ بها تجعَلُهُ يأتي بدعتَهُ ويظنُّ أنَّه يتقرَّبُ إلىٰ ربِّهِ بها، فيستمرُّ عليها، فالعاصي يُوفَّقُ للتوبةِ، بخلافِ المبتدعِ، فغالبًا لا يُوفَّقُ للتوبةِ.

---

(١) (صَحِيحٌ) رواه النسائي (١٥٧٨) وصححه الألباني في صَحِيحِ سُنَنِ النَّسَائي (١٤٨٧) وأَصْلُهُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧١٨) من حديث عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١)، وَمُسْلِمٌ (١٩٠٧).

(٤) جَامِعُ الْعُلومِ وَالْحكمِ (١/ ١٧٦).

وكان الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَهْجُرونَ المبتَدِعةَ ويَطرُدونهم من مجالِسِهم؛ زجْرًا لهم، وتحذيرًا لغيرِهم ممَّنْ تُسَوِّلُ له نفسُهُ مخالفةَ هدي النبيِّ ﷺ في الاعتِقادِ أو العَمَلِ؛ فعنِ الوليدِ بنِ مسلمٍ قال: جاءَ طَلْقُ بنُ حبيبٍ[١]، إلىٰ جُنْدُبَ بنِ عبد اللهِ فسألَهُ عن آيةٍ من القرآنِ، فقال له: أُحَرِّجُ عليك إنْ كنتَ مسلمًا لَمَا قُمْتَ عنِّي، أو قال: أَنْ تجالسني[٢].

وقال ابنُ عباسٍ لأبي صالحٍ ذكوانَ السَّمانِ: لا تُجالِسْ أَهْلَ الأهواءِ؛ فإنَّ مجالسَتَهم ممرضةٌ للقلوب[٣].

فلا يَسْلَمُ مَن يُخالِطُ المبتَدِعةَ ويُجالسُهم لغَيْرِ غرَضٍ شرعيٍّ مُعتبَرٍ، من التأثُّرِ بهم، ففي أقلِّ الأحوالِ تجدُهُ يهونُ عليه أمْرُ البدعةِ والمبتدعةِ، وربَّما نصَّبَ نَفْسَهُ مُدافِعًا عنهم مُسوِّغًا بدعتَهُم، ويُشنِّعُ علىٰ مَن يُنكِرُ عليهم، وربَّما أثَّرَتْ فيهِ شُبَهُهُم، فهذا التابعيُّ أبو قلابةَ عبدُ اللهِ بنُ زيدٍ الجرميُّ يقولُ: لا تُجالِسوا أهلَ الأهواءِ ولا تُجادلُوهم؛ فإنِّي لا آمَنُ أن يَغْمِسُوكم في ضلالَتِهِمْ، أو يُلبِّسوا عليكم ما كنتم تعرفون[٤].

عليك بإخوانِ الثقاتِ فإنهم ... قليلٌ فصِلْهم دونَ من كُنْتَ تَصْحَبُ

ونَفْسَكَ أَكْرِمْهَا وصُنْها فإنها ... متى مَا تجالِسْ سَفَلَةَ الناسِ تغضبُ[٥]

---

(١) طَلْقُ بن حبيب من العبَّاد؛ لكنَّه يعتَقِدُ بدعَةَ الإرجاءِ؛ وهي: أنَّه لا يَضُرُّ مع الإيمانِ معصيةٌ، وذكَر البخاريُّ في «التاريخِ الكبيرِ» (٤/ ٣٥٩) بإسنادِهِ عن أيوبَ السختيانيِّ قال: ما رأيتُ أحَدًا أَعْبَدُ من طلْقِ بنِ حبيبٍ، فرآني سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ جالسًا مَعَهُ فقال: ألم ارَك مع طَلْقٍ؟ لا تُجالِسْ طَلْقًا، وكان طَلْقٌ يرىٰ الإرجاءَ. ا.هـ.

(٢) رواهُ ابنُ جريرٍ الطبريُّ في «تفسيرِهِ» (١/ ٨٠) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٣) (حَسَنٌ) رواهُ أبو بكرٍ الآجُرِّيُّ في «الشريعةِ» ص: ٦٥ بإسنادٍ حَسَنٍ.

(٤) (صحيحٌ) رواهُ الدارميُّ (٣٩١) بإسنادٍ صحيحٍ.

(٥) روضَةُ العُقَلاءِ (١٠٠).

وقال آخَرُ:

ولا تُطـع قَـوْلَ ذي زيـغ يُزَخْرِفُـهُ ... مـن كُـلِّ مبتـدعٍ في الـدين مُـتَّهَمِ
حيـرانَ ضَـلَّ عـن الحَـقِّ المبـينِ فَـلَا ... يَنْفَـكُّ مُنْحَرِفًـا مُعْـوَجَّ لـم يَقْـمِ[1]

٩- مجالَسَةُ أهلِ السُّنَّةِ وأَخْذُ العلمِ عَنْهُمْ:

مـا عاتَـبَ الحُـرُّ الكـريمُ كنفـسِهِ ... والمرءُ يـصْلِحُهُ الجليسُ الـصَّالِحُ[2]

من التوفيق أَنْ يُصيبَ الإنسانُ صاحِبَ عِلْمٍ يستفيدُ منه، فإنَّ كثيرًا من الناسِ أَصابوا أَهْلَ بدعةٍ، وبعضَهم أصابَ جاهلًا، فأَضَلَّهُ عن الحَقِّ، ولكنْ إذا وُفِّقَ لصاحِبِ سنةٍ وعلمٍ فذلكَ توفيقٌ من اللهِ.

عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ يَعْمُرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ، بالْبَصْرَةِ، مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ، أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فوُفِّقَ لنا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ[3]، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ[4]، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا

---

(١) مجموعةُ القصائِدِ الزهدياتِ (١/ ٢٤).

(٢) الأسْلُوبُ (١٩٠).

(٣) أي: سيقتَنِعُ بقولي، ويعتمدُ عليَّ فيما أذكُرُ.

(٤) أي: يطلبونه ويتتبَّعونَهُ.

قَدَرَ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ[١]، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ، حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وساقَ حديثَ جبريلَ وفيه: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[٢] فتأَمَّلْ كيفَ وفَّقَهما اللهُ للرجوعِ إلىٰ عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يزيلُ عنهما الشُّبَهَ، وأعظمُ من ذلك أن يوفَّقَ الرجُلُ لعالمٍ من أهلِ السُّنَّةِ يأْخُذُ عنه العلمَ عن عبدِ اللهِ بنِ شَوْذَبٍ عن أيوبَ قال: «إنَّ من سعادةِ الحَدَثِ[٣] والأعجميِّ أن يوفِّقَهُما اللهُ لعالِمٍ من أَهْلِ السُّنَّةِ»[٤].

قال ابنُ عبد القويِّ رَحِمَهُ اللهُ:

وخالِطْ إذا خالَطْتَ كُلَّ موفَّقٍ ... من العُلَمَا أهلِ التُّقَى والتَّعَبُّدِ

يُفِيدُكَ من عِلمٍ وَيَنْهَاكَ عَنْ هَوى ... فَصَاحِبْهُ تُهْدَ مِن هُدَاهُ وَتَرْشُدِ[٥]

وقال أستاذنا عبد الكريم العماد حفظه الله:

علماءُ أهلِ السُّنَّةِ الغَرَّا هُمْ ... خيرُ الهُداة إلى الطَّريقِ الأَقومِ

فاعْمَلْ بفَتْواهُمْ وطبِّقْ عِلمَهم ... وتجنَّبِ البِدَعَ المُضِلَّة تَسْلَمِ

---

(١) «يزعمون أَنْ لا قَدَرَ»: أي: أَنَّ الأشياءَ لم يُسْبَقْ تقديرُها. «أن الأَمْرَ أُنُفٌ»: أي: مُسْتَأْنَفٌ، لم يتقدَّم فيه قَدَرٌ ولا مشيئةٌ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

(٣) الحَدَثُ أي صغيرُ السِّنِّ.

(٤) شرحُ السُّنَّةِ للألكائيِّ (١/ ٦٠).

(٥) انظر كتابي «نزهَةُ الأحبابِ شَرْحُ منظومةِ الآدابِ» (٣٣٤) فإنه كتابٌ نفيسٌ في بَابِهِ، فاظفر به.

لا يَخَافُ الزَّمانَ من ظفرتْ ... كفاه منه بِعَصْمةٍ أو زمامِ

١٠- طلبُ العلمِ النَّافِعِ:

تُــزَوِّدُهُ التَّوفيــقَ في كــلِّ مَطْلَــبٍ وَمَـنْ طلـب العلـم الجليـلَ تَـزَوَّدا[١]

طلبُ العِلمِ النافعِ من أعظمِ أسبابِ التوفيقِ دَلَّ علىٰ ذلك حديثُ معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**»[٢].

فدَلَّ الحديثُ علىٰ أنَّ من أرادَ اللهُ له الخيرَ وفَّقَهُ للعلمِ النافِعِ، ومفهومُ المخالفةِ أَنَّ مَنْ لم يُفَقِّهْهُ اللهُ في الدينِ لم يُرِدْ بِهِ التوفيقَ للخيرِ.

فالعلمُ أَوَّلُ طريقِ التوفيقِ الذي مَنْ سَلَكَهُ فقد سلك طريقَ الجَنَّةِ فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ بِهِ طريقًا إلىٰ الجَنَّةِ**»[٣].

والعلمُ المقصودُ هو قالَ اللهُ قالَ رسولُ اللهِ قالَ الصحابةُ، كما قال الشاعر:

فَــدُرْ حَــوْلَ قــالَ اللهُ قــالَ رســولُهُ وأصحابُه - أيضًا - فَهذَا هو العلْمُ[٤]

وقال آخر:

ومــا العلــمُ إلا مــن كتــابٍ وســنةٍ وغيرُهمــا جهــلٌ صــريحٌ مركــبُ[٥]

وما من شكٍّ أنَّ العلمَ هو ميراثُ الأنبياءِ مَنْ نالَهُ نال حظًّا عظيمًا من التوفيق.

---

(١) ديوانُ علي الجارِمُ (٧٧).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨٨٢)، وَمُسْلِمٌ (١٠٣٧).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٩٩).

(٤) «دواوينُ الشِّعْرِ الْعَرَبِي» (٨٧/ ٢٩١).

(٥) القصائدُ الزُّهْدِياتُ (١/ ٢٢٤).

فعن أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما وَرَّثُوا العلمَ، فمن أَخَذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وافرٍ**»(١).

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْعِلْمِ:

يـا طالـبَ العلـمِ لا تبغـي بـه بَـدَلًا ... فقـدْ ظَفِـرْتَ ورَبِّ اللَّـوحِ والقَلَـمِ

وقَـدِّسِ العلـمَ واعْـرِفْ قَـدْرَ حُرْمَتِـهِ ... في القـولِ والفعـلِ والآدابِ فـالتزمِ

واجْهَـدْ بعـزمٍ قـويٍّ لا انثنـاءَ لـه ... لو يعلمُ المرءُ قَدْرَ العلمِ لـم يَنَمِ(٢)

١١- الرُّجُوعُ إلى الْعُلَماءِ:

وخُذْ إنْ طلبتَ الهَدْيَ عن كلِّ عالمٍ ... تـراهُ بـآدابِ الهُـدَى يتـأَدَّبُ(٣)

من أسبابِ التوفيقِ الرجوعُ إلىٰ العلماءِ واعتبارُهم مرجعيَّةً في الدنيا والدين.

وليعلمْ العبدُ أَنَّ الشُّبُهاتِ والفِتَنَ والنوازلَ المُدْلَهِمَّاتِ سواءً داخِلَ البيتِ أو خارجهُ تحيطُ به فيجبُ ألَّا يخطوَ خطوةً إلا بعدَ الرجوعِ إلىٰ العلماءِ وبذلكَ يسلمُ العبدُ من الخُذْلانِ ويَصْحَبُهُ التوفيقُ ولا بُدَّ.

وقد أَمَرَ اللهُ ﷻ بسؤالِ العلماءِ والرجوعِ إليهم فقال ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحلُ: ٤٣].

وقالَ ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ

---

(١) (صحيحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٢٥٠٩)، وَصَحَّحهُ الألبانيُّ فِي (صَحِيحِ الْجَامِعِ) (٦٢٩٧).

(٢) الْقَصَائِدُ الزُّهْدِيَّاتُ (٢/ ٤٤٣).

(٣) مَجْمُوعَةُ الْقَصائِدِ الزُّهْدِيَّاتِ (١/ ٢٢٤).

وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساءُ: ٨٣].

والعلماءُ الذين يَجِبُ الرجوعُ إليهم هم الذين تعلَّموا العلمَ وأَفْنَوا فيه أعمارَهم وعَمِلوا به وخَشَعُوا للهِ من أجلِهِ قال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطرُ: ٢٨]. وهمُ الأكابرُ الذين أشارَ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ بقولِهِ: «**البركَةُ مَعَ أكابِرِكُمْ**»(١).

ويُعْرَفُ العلماءُ بأَنَّهم الذين لا يقولون قولًا ولا يُفْتُون غَيْرَهم إلا والدليلُ بين أيديهم من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ بفَهْمِ السَّلَفِ الصالحِ من القرونِ المفضَّلةِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ. فتلكَ علامةٌ بلْ شامةٌ تدلك عليهم فإذا لم تجِدْها فيهم فلا يَغُرَّنَّك غيرُهم فإنَّ هذا العلمَ دينٌ فانظرُوا عَمَّنْ تأخذونَ دينكمْ»(٢).

وما أجملَ ما قالَهُ محمدُ آل خليفةَ عن العلماءِ:

طلعتمْ علينا كالكواكِبِ في الدُّجَى ... وسِرْتُمْ إلينا كالسَّحائِبِ في الجَدْبِ
فأَمْضُوا إلينا يا ذوي اللبِّ بالذي ... يتم بِهِ التوفيقُ بين ذوي اللُّبِّ
أعيدوا على الإسلامِ هَدْيَ محمدٍ ... بما كان يمليه على الآلِ والصَّحْبِ
وسيروا على نَهْجِ التَّفاهُمِ والرِّضا ... وتحتَ هُدَى التوفيقِ جنبًا إلى جَنْبِ(٣)

---

(١) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ ابنُ حبَّانَ في «صَحِيحِهِ» (٥٥٩)، والحاكمُ في «مُسْتَدرَكِهِ» (٢١٠) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانيُّ في «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢٨٨٤)، والصَّحِيحَةِ (١٧٧٨) عَنِ ابنِ عَبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) «مُقَدِّمةُ صَحِيحِ مُسْلِم».

(٣) «دِيوانُ مُحمَّدِ العيدِ آل خليفةٍ» (٢٢٦).

وقال غيره:

ذوو العلمِ في الدُّنْيَا نُجُومُ هدايةٍ ... إذا غابَ نجمٌ لاحَ بَعْدُ جديدُ

بهمْ عَزَّ دينُ اللهِ طرًّا وهُمْ لَهُ ... مَعَاقِلُ من أعدائِهِ وجُنُودُ[١]

١٢- الصِّدْقُ مَعَ اللهِ:

إنْ رُمْتَ يا صاحِ السعادةَ والبَقَا ... فاسْلُكْ سبيلَ اللهِ صدقًا تَنْجَحِ[٢]

من أسباب التوفيقِ الصدقُ مع اللهِ وهو أَنْ يكونَ العَبْدُ صادقًا مع اللهِ في عقيدتِهِ وعبادتِهِ وتعامُلِهِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ومعنىٰ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِتَرْكِ المعاصي ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الإيمانِ والعهودِ بأنْ تلزَمُوا الصِّدْقَ»[٣].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «حَقُّ مَنْ فَهِمَ عن اللهِ وعَقَلَ عنه أنْ يُلازِمَ الصدقَ في الأقوالِ والإخلاصَ في الأعمالِ والصفا في الأحوال فمَنْ كان كذلك لَحِقَ بالأبرارِ ووصَل إلىٰ ربِّنا الغفارِ»[٤].

قال أحمدُ محرمُ وأحْسَنَ:

قُلْ للأُلَى رَقَدُوا والعَدْلُ يقظانُ ... طارَ الكرى واسْتبانَ الأمْرُ والشَّانُ

---

(١) الْقَصَائدُ الزُّهدياتُ (١/ ٨٩).

(٢) تاريخُ الأَدَبِ الْعَرَبي (٢٤٧).

(٣) تَفْسِيرُ الْجَلَالين (٢٦٤).

(٤) «تَفْسِيرُ الْقُرطبي» (٨/ ٢٨٩).

تعلَّموا الصدقَ والإيمانَ وارْتَدِعوا ... إنْ كان يعجبُكم صدقٌ وإيمانُ[١]

وأَحْسَنُ من ذلك وأجملُ قولُ محمودٍ:

الصِّدْقُ حلوٌ وهو المُرُّ ... والصِّدْقُ لا يتركُهُ الحُرُّ

جوهرةُ الصِّدْقِ لها جَوْهَرٌ ... يَحْسُدُها الياقوتُ والدُّرُّ[٢]

١٣- الافْتِقارُ إلى اللهِ:

لنا إليكَ افتقارٌ كامِلٌ ولَكَ الـ ... ـغِنَى وعلمُكَ يُغنينا عن الكَلِمِ[٣]

الافتقارُ إلىٰ اللهِ من أعظمِ أسبابِ التوفيقِ وهو أن يُجرِّدَ العبدُ قلبَهُ من كُلِّ حُظوظِها وأهوائِها، ويُقبلَ بكليَّتِهِ إلىٰ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ متذلِّلًا بين يَديْهِ، مُسْتَسْلِمًا لأمْرِهِ ونهْيِهِ، متعلِّقًا قلبُهُ بمحبَّتِهِ وطاعتِهِ. قال اللهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعامُ: ١٦٢ - ١٦٣].

وعَرَّفَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ الافتقارَ بقولِهِ: «أَنْ يَشْهَدَ العَبْدُ في كلِّ ذَرَّةٍ من ذرَّاتِهِ الظاهرَةِ والباطنةِ فاقةً تامَّةً إلىٰ اللهِ تعالىٰ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ»[٤].

ويَصِفُهُ بقولِهِ: (يَتَخَلَّىٰ بفَقْرِهِ أَنْ يَتَأَلَّهَ غَيْرَ مولاهُ الحَقِّ، وأن يُضَيِّعَ أنفاسَهُ في غيرِ مرضاتِهِ، وأن يُفَرِّقَ هممَهُ في غيرِ محابِّهِ، وأن يُؤْثِرَ عليه في حالٍ من الأحوالِ، فيوجِبُ له هذا الخُلُقُ وهذه المعاملةُ صفاءَ العبوديَّةِ، وعِمَارَةَ السرِّ بينَهُ وبينَ اللهِ،

---

(١) ديوانُ أَحْمَدَ مُحْرِم (٩٦٠).

(٢) أَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ للثَّعَالِبِيِّ (٨٧).

(٣) سَلافَةُ العَصْرِ (٨٩).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٩).

وخلوصَ الوُدِّ، فيصبحُ ويُمْسي ولا هَمَّ له غَيْرُ رَبِّهِ، فقد قَطَعَ هَمُّهُ بربِّهِ عنه جميعَ الهمومِ، وعَطَّلَتْ إرادتُهُ جميعَ الإراداتِ، ونَسَخَتْ محبَّتُهُ له من قلبِهِ كُلَّ محبةٍ لسواهُ)[١].

ويُبَيِّنُ لنا بأَنَّهُ من أعظمِ أسبابِ التوفيقِ بقولِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ وُفِّقَ هَذَا الِافْتِقَارَ عِلْمًا وَحَالًا، وَسَارَ قَلْبُهُ فِي مَيَادِينِهِ بحَقِيقَةِ وَقَصْدٍ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ التَّوْفِيقِ، وَمَنْ حُرِمَهُ فَقَدْ مُنِعَ الطَّرِيقَ وَالرَّفِيقَ، فَمَتَىٰ أُعِينَ مَعَ هَذَا الِافْتِقَارِ ببَذْلِ الْجَهْدِ فِي دَرْكِ الْحَقِّ فَقَدْ سَلَكَ بِهِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»[٢].

وكُــنْ أبــدًا في رَغْبَــةٍ وَتَــضَرُّعٍ ... إلــى اللهِ عــن صِــدْقِ افْتقــارٍ وفاقَــةِ
ووَصْــفِ اضــطرارٍ وانكــسارٍ وذِلَّــةٍ ... وَقَلْــبٍ طَفُــوحٍ بــالظُّنُونِ الْجَمِيلَــةِ[٣]

١٤- الإنَابَةُ إلى اللهِ:

طــوبَى لِعَبْــدٍ لِمَــوْلاهُ إِنابَتُــهُ ... قَــدْ فَــازَ عَبْــدٌ مُنيــبُ الْقَلْــبِ أَوَّاهُ[٤]

الإنابةُ من أَعظمِ أسبابِ التوفيقِ فإذا كنتَ لا تدري ما الإنابةُ فهي الإقبالُ علىٰ اللهِ بمحبةٍ وخضوعٍ، والإعراضُ عمَّا سواه، والرجوع إليه في كل وقت، والندم علىٰ الذنب، والإسراعُ في مرضاتِهِ.

---

(١) طريق الهجرتين (١٨).

(٢) أعلام الموقعين (٤/ ١٣٢).

(٣) مجموعة القصائد الزهديات (١/ ٢١١).

(٤) الْقَصَائِدُ الزُّهْدِيَّاتُ (٢/ ٢٩١).

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ [الزُّمَرُ: ٥٤]. أي ارْجعوا إلىٰ اللهِ، واسْتسلموا له من قبلِ أنْ يأتيَكم العذابُ ثم لا تُنْصَرون أي بادِروا بالتوبةِ والعملِ الصالحِ قبلَ حُلولِ النقمةِ»(١).

بَشِّرْ فؤادَكَ بالنصيبِ الوافي ... من قُرْبِ ربِّكَ واسِعِ الألطافِ
واسْأَلْهُ أَنْ يكسوكَ ثوبَ إنابةٍ ... وهدايةٍ وسلامةٍ وعوافي(٢)

١٥- السلامَةُ من غِلِّ الْقُلوبِ:

خَلِّصْ فؤادَكَ من غِلٍّ ومنْ حَسَدٍ ... فالغِلُّ في القلبِ مِثْلُ الغِلِّ في العُنُقِ(٣)

من علامةِ توفيقِ اللهِ وتسديدِهِ لعبدِهِ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ سلامَةُ صَدْرِهِ ونقاءُ قلبِهِ وخُلوُّهُ من كُلِّ غلٍّ وحسدٍ وحقدٍ علىٰ المسلمين سِيَّما أقاربُهُ وجيرانُهُ وإخوانُهُ مهما لَقِيَ منهم من صنوفِ الأَذَىٰ وضروبِ المِحَنِ.

فعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إلىٰ النبيِّ ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياءِ ضَرَبَهُ قومُهُ فأَدْمَوْهُ، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ ويقولُ: «**اللهمَّ اغْفِرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون**»(٤).

فهذا الحديثُ كافٍ في سلامةِ الصَّدْرِ من غِلِّ القلوبِ وأَنَّهُ خُلُقٌ من أخلاقِ الأنبياءِ الذين أَمَرَنا اللهُ بالتأسِّي بهم فقالَ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعامُ: ٩٠].

---

(١) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٤/ ٦٠).
(٢) صَيْدُ الأَفْكَارِ (٢/ ١٦٠).
(٣) «الشَّكْوىٰ والْعِقَابُ» (٨٦).
(٤) «رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ» (٣٤٥٠).

زِدْ علىٰ ذلكَ أنَّ سلامةَ الصَّدْرِ من صفاتِ أهلِ الجَنَّةِ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجْرُ: ٤٧].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تدخُلُ الجَنَّةَ علىٰ صورةِ القمر ليلةَ البَدْرِ، والذين علىٰ آثارِهم كأَحْسَنِ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السَّماءِ إضَاءَةً، قلوبُهم علىٰ قلبِ رَجُلٍ واحدٍ، لا تباغُضَ بينهم، ولا تحاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زوجتان من الحورِ العِينِ، يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهِنَّ من وراءِ العَظْمِ واللَّحْمِ**».

فطوبَىٰ لِمَنْ تخلَّقَ بأَخلاقِ الأنبياءِ واتَّصَفَ بصفاتِ أهلِ الجَنَّةِ.

ومثلُ هذا سهلٌ يسيرٌ علىٰ مَنْ وفَّقَهُ اللهُ لكنْ لا بُدَّ من ترويضِ النفسِ حتىٰ تنقادَ ومعاودتِها حتىٰ تعتادَ.

فإذا لم تجدْ من نفسِكَ ما تؤمِّلُ فسَلِ الموفِّقَ فمَنْ دعاهُ ثم لم يجدْ بغيتَهُ ومن الذي أدمَنَ الطروقَ لبابِ مولاهُ الكريمِ ثم لمْ يفتَحْ لَهُ.

وجميلٌ أَنْ يتخلَّصَ المرءُ من غِلِّ نفسِهِ، وأجملُ من ذلك من ساعد غيرَهُ علىٰ التخلُّصِ من ضغنِهِ.

ويعجبني قولُ مَعْنِ بنِ أوسٍ:

وذي رحمٍ قلَّمْتُ أظفارَ ضَغْنِهِ ... بحِلْمِيَ عَنْهُ وهو لَيْسَ لَهُ حِلْمُ

فما زِلْتُ في لِيني له وتعطُّفي ... عليه كما تحنو على الولدِ الأُمُّ[1]

---

(١) «أَمَالِيُّ الْقَالِي» (٢/ ١٠٣).

وزادَ ابنُ الأعرابيِّ:

وصَبري على أشياءَ منه تريبني ... وكظْمي على غَيْظي وقد يَنْفَعُ الكَظْمُ
لأسْتَلَّ منه الضَّغْنَ حتى اسْتَلَلْتُهُ ... وقد كان ذا ضَغْنٍ يضيقُ به الجرَم[1]

وقال آخَرُ:

فمن كان ذا قلبٍ سليمٍ مُوَفَّقٍ ... خليٍّ من الأهوا ومن مُعضِل الْخَطَلْ
توخَّ الذي ينجيهِ يَوْمَ مَعَادِه ... وفي هذه الدُّنيا يَكُونُ عَلَى وَجَلْ[2]

١٦- شُكْرُ النِّعْمَةِ:

أفادَتْكُمُ النعماءُ مِنِّي ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا[3]

ومن أسبابِ التوفيقِ شُكْرُ النعمة بِأَنْ يستعمِلَها في مرضاةِ رَبِّهِ فقد يَظُنُّ كثيرٌ من الناسِ أَنَّ مَنْ رُزِقَ مالًا، أو مَنْصِبًا، أو جاهًا، أو غيرَ ذلك من الأمورِ الدنيَوية، أنه قَد وُفِّقَ، والأَمْرُ ليس كما ظنُّوا، فإنَّ الدنيا يعطيها اللهُ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وقد ذَكَرَ اللهُ هذا عن ذلك الإنسانِ، وأخبرَ أَنَّ الأمرَ ليس كما ظَنَّ.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

والصوابُ أَنَّ الموفَّقَ هو الذي إذا أُعْطِيَ منصبًا، أو جاهًا، اسْتعملَهُ في مرضاةِ ربِّهِ، ونُصْرَةِ دينِهِ، ونَفَعَ إخوانَهُ، وإنْ رُزِقَ مالًا أَخَذَهُ من حِلِّهِ وصَرَفَهُ في طاعةِ ربِّهِ،

---

(١) «أَمَالِيُّ الْقَالِي» (٢/ ١٠٣).
(٢) «مَجْمُوعَةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّات» (٢/ ١٥٦).
(٣) رَبِيعُ الأَبْرَارِ (٥/ ٢٧٧).

فإنَّ من حكمةِ اللهِ تعالىٰ أنْ يَبْتَلِيَ عِبادَهُ، فالموفَّقُ منهم هو الذي إذا أُعْطِيَ شَكَرَ، والمخذولُ هو الذي إذا أُعْطِيَ طَغَىٰ وَكَفَرَ، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العَلَقُ: ٦، ٧].

وقال اللهُ عن نبيِّهِ سليمانَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النملُ: ٤٠].

١٧- المُسارعَةُ إلى الخيراتِ:

تَــزَوَّدْ مِــن الــدُّنيا فإنَّــكَ راحِــلٌ وسارعْ إلى الخيراتِ فيمَنْ يسارِعُ(١)

المُسارعَةُ إلىٰ الخيراتِ من أسبابِ التوفيقِ وهو من فِعْلِ الأنبياءِ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياءُ: ٨٩، ٩٠].

كما هو مِنْ فِعْلِ أَتْباعِ الأنبياءِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

فَلَئِنْ كانت سُورَةُ الأنبياءِ تحدَّثَتْ عن الأنبياءِ الذين يُسارعون إلىٰ الخيراتِ، جاء بعدها في التنزيلِ سورةُ المؤمنون لتحدِّثَنا عن أتباعِ الأنبياءِ، وتكونُ المسارعَةُ إلىٰ الخيراتِ بالجِدِّ في الطَّلَبِ، وابتغاءِ الأَجْرِ في مواطِنِ الخَيْرِ، واغتنامِ فُرَصِ الطاعةِ

(١) مِنْ رَحِيقِ الشِّعْر (٩٦).

والثوابِ؛ فالمؤمنُ هِمَّتُهُ عاليةٌ لا يرضَىٰ إلا بمعالي الأمورِ، وعظائِمِ الأجورِ، فهَمُّهُ نَيْلُ رضا اللهِ، فيُكثرُ من النياتِ في العملِ الواحِدِ، ويأَىٰ عن العَجْزِ والكَسَلِ، ويُداومُ علىٰ أعمالِ الخيرِ والبِرِّ.

١٨- إرادةُ الآخرةِ:

لحا الله ذي الدنيا مناخًا لِرَاكِبٍ ... فكُلُّ بعيدِ الهَمِّ فيها مُعَذَّبُ(١)

من أسبابِ التوفيقِ جَعْلُ الآخرةِ نُصْبَ العيونِ ومهوىٰ الأفئدةِ؛ لأنَّها هي دارُ القرارِ.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

أي أَنَّ الدنيا متاعٌ لا يَلْبَثُ أَنْ يزولَ والآخرةُ هي دارُ البقاءِ والاستقرارِ وهل الإنسانُ في هذه الحياةِ إلا غريبٌ أو عابِرُ سبيلٍ فمَنْ جعل الآخرةَ أَمَامَهُ فقد فتح له أبوابَ التوفيقِ ومن جَعَلَ الآخرةَ خَلْفَهُ والدُّنيا أمامَهُ بقِيَ بابُ التوفيقِ مرتجًا دونَهُ.

فَعَنْ زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَنْ كانتِ الدنيا هَمَّهُ فُرِّقَ عليه أَمْرُهُ، وجُعِلَ فقرُهُ بين عينيهِ، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرةُ نيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ له أَمْرَهُ، وجعل غِناه في قلبِهِ وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ**»(٢).

ومن نوابغ الحِكمِ:

من رفَضَ الدنيا أَتَتْهُ الآخِرةْ ... في حُلَّةٍ من الأمانِ فاخِرَةْ(٣)

---

(١) «أبو الطيب ما له وما عليه» (٦٥).

(٢) (صحيح) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٠).

(٣) القصائد الزهديات (١/ ٢٤٨).

١٩- الانطراحُ بين يَدَيِ اللهِ:

فَـوِّضْ إلـى المعبـودِ أمْـرَكَ كلَّـه وافْـزَعْ إلـى المـولى بِغَيْـرِ تَـوانِ(١)

مِنْ أسْبابِ التوفيقِ أنْ يَنْطرِحَ العبدُ - دائمًا - بين يَدَيْ رَبِّهِ ﷻ مُتبرِّئًا من نفسه، ومِنْ حولِها وقوَّتِها ومن أَنْ لا يَكِلَهُ اللهُ إلىٰ نفسِهِ طَرْفَةَ عين.

ولهذا كان من دعاءِ النبيِّ ﷺ: «**اللهمَّ لا تَكِلْني إلىٰ نفسي طَرْفةَ عَيْنٍ**»(٢).

يعني حتىٰ في تحريكِ العينِ وفي طَرْفِها لا تَكِلْني إلىٰ نفسي، وهذا من عِظَمِ معرفَتِهِ ﷺ بربِّهِ ﷻ فهو أعلمُ الخَلْقِ باللهِ ﷻ وأخْشاهُمْ له ﷻ وأتْقاهُمْ ﷺ إلىٰ يومِ الدِّينِ.

فلا يُطْلَبُ التوفيقُ من اللهِ ﷻ بمِثْلِ الانطراحِ بين يدَيْه ﷻ في الحاجةِ إلىٰ توفيقِهِ ﷻ وإذا ظَهَرَ في العبدِ استغناءٌ عن توفيقِ اللهِ ﷻ فقد فَتَحَ علىٰ نفسِهِ أبوابَ الخُذْلانِ حتىٰ أَنَّه ليطلُبُهُ كما يطلبُ السيل الحدورةَ.

٢٠- تَدَبُّرُ القرآنِ:

فَتَـدَبَّرِ القـرآنَ إنْ رُمْـتَ الهُـدَى فـالعِلْمُ تحـتَ تَـدَبُّرِ القـرآنِ(٣)

من أسبابِ التوفيقِ قراءةُ القرآنِ بتدَبُّرٍ علىٰ الوَجْهِ المأمورِ بِهِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمدُ: ٢٤].

قال الثعالبيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «تَدَبُّرُ القرآنِ كفيلٌ لصاحِبِهِ بكُلِّ خَيْرٍ، وأمَّا الهَذْرَمةُ والعَجَلَةُ

---

(١) «مجموعةُ القصائدِ الزُّهْدِيَّةِ» (٢/ ٥٥٤).

(٢) (حَسَنٌ) أخْرَجَهُ النَّسَائيُّ (١٠٤٠٥) وَحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ الجَامِعِ» (٥٨٢٠).

(٣) نُونِيَّةُ ابنِ الْقَيم (٤٩).

فتأثيرُها في القلبِ ضعيفٌ»[١].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تدَبُّرُ القرآن يدعو إلىٰ كُلِّ خيرٍ ويَعْصِمُ من كُلِّ شرٍّ»[٢].

وقال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهدىٰ منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحَقِّ»[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قراءَةُ القرآنِ علىٰ الوجهِ المأمورِ به تُورِثُ الْقَلْبَ الإيمَانَ العظيمَ وتزيدُهُ يقينًا وطمأنينةً وشفاءً»[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وندِمْتُ علىٰ تضييعِ أكْثَرِ أوقاتي في غير معاني القرآنِ»[٥].

تَـــدَبَّرْ كتـــابَ اللهِ عنـــد تَهَجُّـــجٍ ... ولا سيما والنَّاسُ في نـومِهِمْ سَكْرَى

يلاقيـكَ مـن مـولاك أكبَـرُ واعِـظٍ ... على قَلْبِكَ الْمُشْتَاقِ أنْوَارُهُ تُتْرَى[٦]

٢١- التَّقَرُّبُ إلى اللهِ بالنَّوافِلِ:

علـى الخمـسِ توديعًـا بِجِـدٍّ فَـصَلِّهَا ... وحـافِظْ علـى تلـكَ النَّوافِـلِ كُلِّهـا[٧]

التقرُّبُ إلىٰ اللهِ بالنوافِلِ في جميعِ العباداتِ كالصلاةِ، والصَّدَقَةِ، والصيامِ،

---

(١) «تَفْسِيرُ الثَّعَالِبي» (٢/ ٢٦٨).

(٢) تَفْسِيرُ السَّعْدِي (٥٥٤).

(٣) مَجْمُوعُ الْفَتَاوىٰ (٣/ ١٣٧).

(٤) الْمَرجعُ السَّابِقُ (٧/ ٢٨٣).

(٥) «ذَيلُ طَبَقَاتِ الْحَنَابِلَةِ» (٢/ ٣٩٢).

(٦) مَجْمُوعَةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّاتِ (٢/ ٢١٩).

(٧) «مَجْمُوعَةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّاتِ» (١/ ٤٤٧).

والحَجِّ، وسائِرِ الطاعاتِ التي فرضَها اللهُ علىٰ عبادِهِ من أعظمِ أسبابِ التوفيقِ فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ إنَّ الله ﷻ قال في حديثِهِ القدسيِّ: «... **وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتىٰ أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سمْعَهُ الذي يسمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به ويَدَهُ التي يبطِشُ بها، ورجلَهُ التي يمشِي بها، وإنْ سألَني أعطيتُهُ، ولَئِنِ اسْتعاذني لأُعيذَنَّهُ**»(١) ولا شَكَّ أنَّ مَنْ أحبَّهُ اللهُ سَهَّلَ له سُبُلَ التوفيقِ لمرضاتِهِ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو لم يَكُنْ في المحبَّةِ إلا أنَّها تنجي مُحِبَّهُ من عذابِهِ، لكان ينبغي للعبدِ أنْ لا يتعوَّضَ عنها بشيءٍ أبدًا وسُئِلَ بعضُ العلماءِ أينَ تَجِدُ في القرآنِ أنَّ الحبيبَ لا يُعَذِّبُ حبيبَهُ:

قال: في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [المائدة: ١٨]»(٢).

٢٢- اغتنامُ البكورِ:

مــن ضَــيَّعَ الحَــزْمَ في أوقاتِــهِ نَــدِمَا وظَــلَّ مكتئِبًــا والقلــبُ قــد سَــئِما(٣)

من أسبابِ التوفيقِ اغتنامُ أوقاتِ البكورِ؛ لأَنَّهُ في هذا الوقتِ تحِلُّ البركةُ في الأرزاقِ والأعمارِ والأعمالِ دَلَّ علىٰ ذلك حديثُ ابنِ عُمَرَ وأبي هريرةَ وصَخْرِ بنِ وداعةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اللهمَّ باركْ لأُمَّتي في بُكُورِها**»(٤).

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢).

(٢) «رَوضَةُ المُحِبين» (٤١٦).

(٣) صَيْدُ الأَفْكَارِ (١/ ١٨٥).

(٤) (صَحيحُ لِغَيْرِهِ) أخرَجَهُ أَحْمَدُ (٥٠١٢)، وأَبُو دَاوُد (٢٦٠٢) والتِّرمِذِيُّ (١٢١٢) وابنُ مَاجَه (٢٢٣٦) وقَالَ الأَلْبَانيُّ فِي «صَحِيح التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيب» (١٦٩٣): صَحِيح لِغَيْرِه.

لا تكسلنَ لكسْب الرزق عن بكرِ فالرزق ينموا بتقوى الله والبكر
واحذر من السحت لا تنبت به بدنًا فالنار أولى به ذا صح في الخبر (١)

ولقد عَرَفَ السَّلفُ أهميَّةَ تلكَ الساعةِ فلم يكونوا يغفَلون عنها وحاشا لهم.

ففي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) أَنَّ رَجُلينِ جاءا إلىٰ عبدِ اللهِ بن مسعودٍ يزورانِهِ بعد الفجرِ، فأَذِنَتْ لهم الجاريةُ بالدخولِ فتردَّدَا، فقال لهم عبدُ اللهِ: «ادْخُلا، أتظنَّانِ بابنِ أُمِّ عبدٍ الغفلةَ»؟!!

٢٣- لزومُ السَّكينةِ والوَقارِ(٣):

علـيكمْ إذا طـاشَ الرجـالُ سـكينةٌ تُزَلْـزِلُ رَضْـوى أو تبيـدُ يَلَمْلَمَـا(٤)

ومن أسبابِ التوفيقِ لزومُ السكينةِ والوقارِ، فمن لَزِمَ السكينةَ والوقارَ وراضَ علىٰ ذلك نفسَهُ بحيثُ يصيرانِ له سجيةً وخُلُقًا لَزِمَتْهُ عندما يواجِهُ بلايا الدنيا وشدائِدَها فلا يَصْدُرُ منه شيءٌ من الجزعِ وغيرِهِ مما ينافي الصبرَ والرِّضا.

وقد حَثَّ النبيُّ ﷺ علىٰ لزومِ السكينةِ والوقارِ فعن أبي قتادةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**عليكم بالسَّكينةِ والوقارِ**»(٥).

((١) قَالَهُ: بلالُ الخطبانيُّ - حَفَظَهُ اللهُ-.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٢٢).

(٣) انْظُرْ كِتَابِي «السَّكِينةُ الخُلُقُ المفقودُ» ففيهِ ما يملأُ الصدر والنحرَ إن شاءَ اللهُ، ومتىٰ ظفرت به استمتعت وظفرت بِالغَادَةِ الْحَسناءِ.

(٤) «ديوانُ الأَخْرَسِ» (٦٧١).

(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٩٠٨)، وَمُسْلِمٌ (٦٠٢).

قال ابنُ عُثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قولُهُ: «**عليكم بالسكينةِ والوقارِ**» الفَرْقُ بينهما أَنَّ الوقارَ في الظاهِرِ، والسكينةَ في الباطِنِ قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فيكونُ القلبُ ساكنًا وقورًا بحيثُ لا يتحركُ حركاتٍ تخالفُ المروءة»(١).

وأسبابُ اكتسابِ السكينةِ كثيرٌ لعلَّ أهمَّها مُجالسةُ أهلِها.

قال عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسًا جليسًا صالحًا ... فليأْتِ حَلْقَةَ مسعرِ بنِ كِدَامِ

فيها السكينةُ والوقارُ وأهلُها ... أهلُ العفافِ وعليةُ الأقوامِ(٢)

٢٤- الأَخْذُ بالأسبابِ:

ما أَنْتَ بالسببِ الضعيفِ وإِنَّما ... نُجْحُ الأمورِ بِقُوَّةِ الأَسْبَابِ(٣)

من أسبابِ التوفيقِ الأَخْذُ بالأسبابِ المشروعةِ؛ لأَنَّ الأَخْذَ بالأسبابِ عبادةٌ من العباداتِ، والاعتمادُ عليها شركٌ ومن أَخَذَ بالأسباب ولو كانت ضعيفةً ثم اعْتَمدَ علىٰ اللهِ فقد امْتَثَلَ.

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَنَالُ العبدُ شيئًا إلا بما قَدَّرَ اللهُ من جميعِ الأسبابِ واللهُ خالِقُ الشيءِ وخالقُ الأسبابِ ولهذا قيلَ الالتِفَاتُ إلىٰ الأسبابِ شِرْكٌ في

---

(١) تعليقاتُ ابنِ عثيمينِ عَلىٰ الكافِي لابنِ قُدَامَةَ (٢/ ٢٢٢).

(٢) «ديوانُ ابنِ الْمُبارِكِ» (٢٤).

(٣) «الذَّخَائِرُ وَالْعَبْقَرِيَّاتُ» (١/ ٨٨).

التَّوْحيدِ ومحوُ الأسْبَابِ أَنْ تكونَ أسبابًا نَقْصٌ في العقلِ، والإعراضُ عن الأسْبَابِ بالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ في الشَّرْعِ»(١).

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا تَتِمُّ حقيقةُ التوحيدِ إلا بمباشَرَةِ الأسبابِ التي نَصَبَها اللهُ ﷻ وأنَّ تعطيلَها يَقْدَحُ في نفسِ التوكُّلِ، وأنَّ تَرْكَها عجزٌ ينافي التوكُّلَ الذي حقيقتُهُ اعتمادُ القلبِ علىٰ اللهِ في حصولِ ما ينفَعُ العَبْدَ في دينِهِ ودنياه، ودفعِ ما يَضُرُّهُ في دينِهِ ودنياه، ولا بُدَّ من هذا الاعتمادِ من مباشرةِ الأسبابِ، وإِلَّا كانَ مُعَطِّلًا للحكمةِ والشرعِ، فلا يَجْعَلْ العبدُ عَجْزَهُ توكُّلًا ولا توكُّلَهُ عَجْزًا»(٢).

فتحتَ للناسِ أبوابَ المقاصِدِ لا ... تعطَّلَتْ من حماكَ الرَّحْبِ أَبْوَابُ
هذا لَهُ سببٌ فيما يحاولُهُ ... وذا لَهُ من مقالِ الشِّعْرِ أسبابُ(٣)

٢٥- الصَّدَقَةُ:

أَنْفِقْ ولا تَخْشَ من ذي العَرْشِ إقلالًا ... ولا تُطِعْ في سبيلِ الجُودِ عُذَّالا(٤)

من أسبابِ التوفيقِ الصَّدَقَةُ والإنفاقُ قال اللهُ ﷻ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آلُ عمرانَ: ٩٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سَبَأٌ: ٣٩].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما من يومٍ يصبحُ العبادُ إلا مَلَكانِ**

---

(١) «مُخْتَصرُ الْفَتَاوَىٰ المصريَّةِ» (١٨١).
(٢) «زادُ الْمَعادِ» (٤/ ١٤).
(٣) ديوانُ ابنِ نَبَاتة (٢٢١).
(٤) «ديوانُ ابنِ مُشْرِفٍ» (١٩١).

يَنْزِلانِ فيقولُ أَحَدُهما اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًاخَلَفًا، ويقولُ الآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(١).

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ من طَيِّبٍ - ولا يَقْبَلُ اللهُ إلا الطَّيِّبَ - إلَّا أخَذَها الرحمنُ بيمينِهِ، وإن كانت تَمْرَةً فتربو في كَفِّ الرحمنِ حتىٰ تكونَ أعظمَ من الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أَحَدُكم فَلْوَهُ أو فَصِيلَهُ**»(٢).

ويُشْتَرطُ لقبولِ الصَّدَقَةِ ابتغاءُ مرضاةِ اللهِ وطِيبُ المكسبِ وطِيبُ النَّفْسِ وألَّا يُعْقِبَها منًّا ولا أذًىٰ.

وما أجملَ الذي يقولُ:

إنَّ كنـــزًا أنفقـــتَ منـــه لَكَنْـــزٌ غيـــرُ مُـــسْتَنْفَدٍ علـــى الإنفـــاقِ(٣)

٢٦- بِرُّ الوالدينِ:

وتَحَـــرَّ بـــرَّ الوالـــدينِ فَإِنَّـــه فَـــرْضٌ عَلَيْـكَ وطَاعَـةُ الـسُّلْطانِ(٤)

من أعظمِ أبوابِ التوفيقِ ونَيْلِ السعادةِ في الدارين، بِرُّ الوالدَينِ ويكفي أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ قد قَرَنَ بِرَّهما بتوحيدِهِ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقَرَنَ شُكْرَهُ بِشُكْرِهما فقال سبحانَهُ وتعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٤٢)، وَمُسْلِمٌ (١٠١٠).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٤١٠)، وَمُسْلِمٌ (١٠١٤).

(٣) دَوَاوينُ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ (٤٥/ ٦٥).

(٤) مجموعةُ الْقصَائِدِ الزُّهْدِيةِ (١/ ١٦١).

[لقمانُ: ١٤]. وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أَنَّ بِرَّ الوالدين من أَحَبِّ الأعمالِ إلىٰ اللهِ سبحانه وتعالىٰ، فَعَنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**سألتُ النبيَّ - أَيُّ العملِ أحبُّ إلىٰ اللهِ؟ قال: الصلاةُ عَلَىٰ وَقتِها. قال: ثمَّ أَي؟ قال: ثمَّ برُّ الوالِدَينِ. قال: ثمَّ أَيٌّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ اللهِ**»(١).

عَلَيكَ ببرِّ الوَالِدَينِ كِلَيهِمَا ... وَبرِّ ذَوِي القُرْبَى وَبرِّ الأَباعِدِ
وَلَا تَصْحَبَنْ إِلَّا تَقِيًّا مُهَذَّبًا ... عَفِيفًا زَكيًّا مُنْجِزًا لِلْمَوَاعِدِ(٢)

٢٧- صِلَةُ الرَّحِمِ:

وإِنَّ امرِءًا لا يَتَّقي سُخْطَ قَوْمِهِ ... ولا يَحْفَظُ الْقُرْبَى لَغَيْرُ مُوَفَّقِ(٣)

وَمِنْ أسبابِ تَوْفِيقِ الله لِلْعَبْدِ: صِلَةُ الرَّحِمِ، وصلةُ الرَّحِمِ هي الإحسانُ إلىٰ الأقاربِ علىٰ حَسَبِ حال الواصلِ والموصولِ فتارةً تكونُ بالمالِ، وتارةً بالخِدْمَةِ، وتارةً بالزيارةِ والسلامِ وغيرِ ذلكَ(٤) وهي شِعارٌ لأهلِ الإيمانِ.

فعنْ أبي هريرةَ - رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه - إِنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ كان يُؤْمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٥).

كما هي سببٌ في زيادةِ العُمُرِ وبركةِ الرزقِ لما ثَبَتَ في الحديثِ عن أَنَسِ بنِ

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٨٢) وَمُسْلِمٌ (٨٥).
(٢) مُجْتَنَي الأَدَبِ (٣/ ٥٨).
(٣) صيد الأفكار (٢/ ١٤٠).
(٤) شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلىٰ مُسْلِمٍ (١٦/ ١١٣).
(٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦١٣٨)، وَمُسلِمٌ (٧٤).

مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ ويُنْسَأَ له في أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

وأثنىٰ النبيُّ ﷺ علىٰ من يبادِرُ إلىٰ وَصْلِ أرحامِهِ وإنْ قَطَعُوه؛ فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: «يَا رَسُولَ الله إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ فَقَالَ: **لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُم المَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِن الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ**»(٢).

ولا أَدْفَعُ ابنَ العَمِّ يمشي على شفا ... وإنْ بَلَغَتْنِي من أذاهُ الجنادعُ

ولكِنْ أواسيهِ وأنسى ذنوبَهُ ... لِتُرْجِعَهُ يومًا إليَّ الرَّواجعُ

وحَسْبُكَ من ذُلٍّ وسُوءِ صنيعةٍ ... مناواةُ ذي الْقُرْبى وإن قِيلَ قاطِعُ(٣)

٢٨- العَدْلُ:

رفَعْنا على هامِ الممالِكِ حُكْمَنَا ... فكانَ لها تاجًا من العَدْلِ غاليا(٤)

العَدْلُ خلافُ الجَوْرِ وهو المساواةُ بلا حَيْفٍ ولا جَوْرٍ فَمَنْ لَزِمَ العَدْلَ في كُلِّ شيءٍ يكونُ فيه العَدْلُ أحاطَ به التوفيقُ من كُلِّ جانبٍ؛ لأنَّ العَدْلَ نظامُ الوجودِ وبِهِ تنتظمُ شؤونُ الحياةِ.

قال اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمنُ: ٧].

وضَعَ الميزانَ: شَرَعَ العَدْلَ وأَمَرَ به الخَلْقَ.

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٨٦) وَمُسْلِمٌ (٢٥٥٦).

(٢) رَواهُ مُسْلِمٌ (٢٥٥٨).

(٣) أمالي الْقَالِي (٢/ ٢٣٣).

(٤) ديوانُ أَحْمَدَ مُحْرِمٍ (٨٥).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمنُ: ٨].

أنْ لا تَطْغَوا: لِئَلَّا تتجاوزوا العدلَ والحَقَّ.

وقال تعالىٰ: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥].

ومعنىٰ قوَّامين أي: كَثْرَةُ القيامِ بالعَدْلِ.

ومعنىٰ بالقسْطِ أي: بالعَدْلِ.

وأَخْبَرَ تعالىٰ أنَّهُ يُحِبُّ المُقْسِطين فقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩].

وأخبرَ النبيُّ ﷺ بعظيمِ مَنْزلَةِ من يعدلُ عما هو راعٍ عليه. فعن عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**المُقْسِطونَ علىٰ منابرَ من نورٍ عن يمينِ الرَّحمنِ وكِلتا يَدَيْهِ يمينٌ الذين يُقْسِطون في أَهْليهم وما وُلوا**»(١).

والعَدْلُ كما يكونُ في الحُكْمِ بينَ الناسِ يكونُ - أيضًا - في العملِ كالقيامِ بما يَجِبُ من العدلِ بين الزوجاتِ والأولاد في النفقةِ والمساواةِ بينهم.

ويكونُ العَدْلُ - أيضًا - عامًّا للبَرِّ والفاجِرِ، ولِكُلِّ أحَدٍ، ولا يَمْنَعُ من إقامةِ العَدْلِ حِقْدٌ أو كراهيةٌ أو عداوةٌ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

والعدلُ محبوبٌ لكلِّ أحَدٍ وصاحِبُهُ محسودٌ في كُلِّ بَلَدٍ.

---

(١) «رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (١٨٢٧).

ومن دُرَرِ البحتريِّ:

وأُمُّــهُ كــان قُــبْحُ الجَــوْرِ يُــسْخِطُها دهرًا، فأصبحَ حُسْنُ العَدْلِ يُرْضِيها[١]

٢٩- الرِّفْقُ:

لــو ســارَ أَلْــفُ مــدَجَّجٍ في حاجــةٍ لــم يَقْــضِها إلا الــذي يَتَرَفَّــقُ[٢]

الرفْقُ في كُلِّ موطنٍ يكونُ فيه الرِّفْقُ من أعظمِ أسبابِ التوفيقِ.

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إن اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرفْقَ في الأمرِ كُلِّهِ**»[٣].

وعنها قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شانَهُ**»[٤].

فها أنتَ ترىٰ أَنَّ التوفيقَ والنجاحَ لم يَجِد أندادًا خيرًا من الرفقِ.

ومن أمثالِ العَرَبِ: «من عَدِمَ المرانةَ عَدِمَ التوفيقَ» أي مَنْ عَدِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ التوفيقَ.

وقيلَ للفضيل: هَلْ يُوجَدُ في كتابِ اللهِ ﷻ قولُهُم: «من عَدِمَ المرانةَ عَدِمَ التوفيقَ؟

فقال: نعم في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمرانَ: ١٥٩][٥].

---

(١) «أبو الطَّيِّبِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْه» (٥٧).

(٢) «رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ» (٢١٦).

(٣) «رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ» (٦٩٢٧)، وَمُسْلِمٌ (٢١٦٥).

(٤) «رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (٢٥٩٤).

(٥) «الأَمْثَالُ فِي الْقُرآنِ» للحُسَيْنِ بنِ الْفَضْلِ (٢٠٤ - ٢٦٢).

ومن أمْثالِ العَرَبِ - أيضًا -: «لا مالَ لمن لا رِفْقَ له»[١] يعني أنَّ المالَ يُكْسِبُهُ الرفْقُ لا الخُرْقُ».

وقولُهم: «الرَّشِيفَ أَشْرَبُ»[٢].

أي أَنَّ الرفقَ في طَلَبِ الحاجةِ أجْلَبُ وأسْهَلُ للوُصُولِ إِلَيْهَا.

وَمِنْ جَمِيلِ ما قيلَ في الرِّفْقِ مِنَ الشِّعْرِ:

الرفقُ ألطفُ ما اتخذْتَ رفيقَا ... ويسوءُ ظنُّكَ أن تكونَ شفيقا

وإذا سألْتَ اللهَ صُحْبَةَ صاحبٍ ... فاسأَلْهُ في أَنْ يَصْحَبَ التوفيقا[٣]

٣٠- العَفْوُ عن الناسِ[٤]:

فاغْفِرْ ذُنُوبًا لِتُجْزَى بَعْدُ مَغْفِرَةً ... واعْذُرْ لِتُصْبِحَ بينَ الناسِ مَعْذورا[٥]

العفوُ عن الناسِ من أعظم أسبابِ التوفيقِ فمَنْ يَغْفِرْ يُغْفَرْ لَهُ ومَنْ يَصْفَحْ يُصْفَحْ عَنْهُ والجزاءُ من جنسِ العملِ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا،**

---

(١) «مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ» (٢/ ٢٤٣).

(٢) «مَجْمَعُ الأَمْثَالِ» (١/ ١٦٣).

(٣) «مَجْمَعُ الْحكمِ والأَمْثَالِ» (٤/ ٢٨٢).

(٤) انظر كتابي «الاعتذارُ فنٌّ وذوقٌ» ففيه أحاديث تعطرت منها الرُّبَى «فاطلبْ تظفرْ»

طالِعْ لِتَعْرِفَ مِنْ شَوارِدْ عِلْمِهِ ... تَظْفَرْ بنورٍ كالمجرَّةِ لائح

(٥) دواوين الشعر العربي (٤١/ ٢).

واغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ»[١].

خُذِ العَفْوَ واصْفَحْ عن أخٍ بعضَ عَيْبِهِ ... إذا ما بدا وارْفِقْ بمَنْ أَنْتَ غامِزُ

فإنْ هو أدَّى بعضَ حقِّكَ فَارْضَهُ ... فليس بِمَغْبُونٍ أخٌ مُتجاوِزُ[٢]

٣١- الاسْتِشَارَةُ:

خليليَّ ليسَ الرَّأْيُ في صَدْرِ واحِدٍ ... أَشِيرَا عَلَيَّ بالَّذِي تَرَيانِ[٣]

الاستشارةُ من أسبابِ التوفيقِ لبُلُوغِ المَقْصَدِ فما تَشَاوَرَ قومٌ قَطُّ إلا هداهُمُ اللهُ لأرشَدِ أمرِهِمْ ويكفي الاستشارةَ أنَّ اللهَ أثنىٰ علىٰ أهلِها فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨].

قال القرطبيُّ: كانَ الأنصارُ قَبْلَ مَقْدَمِ النبيِّ ﷺ إذا أَرَادُوا أمرًا تَشَاوروا فيهِ، ثم عَمِلُوا عليهِ، فَمَدَحَهُمُ اللهُ - تعالىٰ - بِهِ[٤].

وأَمَرَ اللهُ تعالىٰ بالاستشارةِ أَكْمَلَ الخَلْقِ لُبَابةً وأولىٰ بالإصابةِ، فقالَ لرسولِهِ الكريمِ في كتابِهِ الحكيمِ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آلُ عِمرانَ: ١٥٩].

ذَهَبَ المفسِّرونَ إلىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لم يأمرْ نبيَّهُ بمُشاورةِ أصْحابِهِ لِحاجةٍ منه إلىٰ رَأْيِهِمْ ولَكِنْ ليُعلَمَ ما في المُشاورةِ من البَرَكَةِ والنَّماءِ[٥].

---

(١) «صحيح» أخرجه أحمد (٦٥٤١)، وصححه الألبانيُّ في «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٨٩٧).

(٢) «ديوان ابن الرومي» (٢٢٩٦).

(٣) تَفْسِيرُ التَّحْرِيرِ والتَّنْوِيرِ (٤/ ١٥٠).

(٤) تَفْسِيرُ الْقُرطبي (١٦/ ٣٦).

(٥) الذَّخَائِرُ والْعَبْقَرِيَّاتُ (٢/ ٧٦).

قال ابنُ الزيَّاتِ الوزيرُ: جَعَلَ اللهُ التوكُّلَ بَعْدَ العَزْمِ، والمَشُورَةَ قَبْلَهُ[١] وجَعَلَ اللهُ المشاورةَ من سماتِ المؤمنينَ الكُمَّلِ فقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النورُ: ٦٢].

قال ابنُ كَثيرٍ: إذا كانُوا في أمرٍ جامعٍ مَعَ الرسولِ ﷺ من صلاةِ جُمُعَةٍ، أو عيدٍ أو جماعةٍ، أو اجتماعٍ في مشورةٍ، ونحوِ ذلك، أَمَرَهُمُ اللهُ - تعالىٰ - ألَّا يَتَفرَّقُوا عنه والحالَةُ هذهِ إلا بَعْدَ اسْتئْذانِهِ ومُشَاوَرَتِهِ[٢].

ويُعجبني قولُ بشَّارَ:

إذا بلـغَ الـرأْيُ المـشورةَ فاسْـتَعِنْ ... بِحَـزْمِ نَـصِيحٍ أو نَـصيحةِ حـازِمِ

ولا تَجْعَـلِ الـشُّورى عليكَ غَـضَاضَةً ... فـإنَّ الخـوافي قُـوَّةٌ للقـوادِمِ[٣]

وقال عليُّ بنُ جِبِلَّةَ يمدَحُ صاحِبَ رأْيٍ ومشاورةٍ:

موفَّـقُ الـرَّأيِ لا زالَـتْ عزائِمُـهُ ... تكـادُ منهـا الجبـالُ الـصُّمُّ تَنْـصَدِعُ

كأَنَّمـا كانَـتِ الآراءُ مِنْـهُ لهـا ... نَـواظِرًا في قلـوبِ الـدَّهْرِ تطَّلِـعُ[٤]

وقال أستاذُنا العمادُ - حفظه الله - يمدح أخًا له:

إذا احْتَـرْتَ في أمـرٍ فـشاوِرْهُ يَـسْتَبِنْ ... فَحِكْمَتُـهُ صَـوْبَ الرَّشَـادِ بَرِيـدُ

فـإنْ قـال (لا) فـالأَمْرُ فيـهِ مَلامَـةٌ ... وإنْ قـال في أمـرٍ (نَعَـمْ) فَرَشِـيدُ

---

(١) الْبَصَائِرُ والذَّخَائِرُ (٧/ ١٥٢).

(٢) تَفْسِيرُ ابنِ كَثِيرٍ (٣/ ٣٠٦).

(٣) ديوانُ بَشَّار (١٠١٥).

(٤) الحماسَةُ البَصْرِيَّةُ (١/ ١٦٥).

٣٢- صلاةُ الاسْتِخَارَةِ:

مَـــنِ اسْـــتَخَارَ رَكِـــبَ الـــصَّوابَا أَوِ اسْتَـــشَارَ أَمِـــنَ العِقابَـــا[١]

صلاةُ الاسْتخارَةِ، هي تَوَكُّلٌ علىٰ اللهِ، وطَلَبُ التوفيقِ منهُ في خيرِ الأمرَين، ومن أمثالِ النُّبَلاءِ: (مَنْ أُعْطِيَ الاستخارةَ لَمْ يَعْدَمِ الخِيرَةَ)[٢].

و(الاستخارةُ، سراجُ الاسْتنارةِ)[٣] وحُكْمُها أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ الاسْتِخَارَةَ سُنَّةٌ، وَدَلِيلُ مَشْرُوعِيَّتِهَا.

حديثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي - قَالَ: - وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**»[٤].

---

(١) الْقَصَائِدُ الزُّهْدِيَّاتُ (١/ ٢٤٥).

(٢) صَيْدُ الأَفْكَارِ (٣٧٠).

(٣) صُبْحُ الْأَعْشَىٰ (٧/ ٢٧).

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٨٢).

ومعنىٰ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بعِلْمِكَ أَيْ أَطْلُبُ مِنْكَ الْخَيْرَ وَأَسْتَقْدِرُكَ أَيْ أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْدُرَ لِي الْخَيْرَ بقُدْرَتِكَ قَالَ الْكَرْمَانِيُّ الْبَاءُ فِي بِعِلْمِكَ وَبقُدْرَتِكَ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلِاسْتِعَانَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أَيْ بحَقِّ عِلْمِكَ وَقُدْرَتِكَ الشَّامِلَيْنِ فَاقْدُرْهُ لِي بِضَمِّ الدَّالِ وَكَسْرِهَا أَيْ فَقَدِّرْهُ مِنَ التَّقْدِيرِ قَالَ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ الْقَرَافِيُّ فِي كِتَابِ أَنْوَارِ الْبُرُوقِ يَتَعَيَّنُ أَنْ يُرَادَ بالتَّقْدِيرِ هُنَا التَّيْسِيرُ فَمَعْنَاه فَيَسِّرْهُ ثمَّ رَضِّنِي بِهِ أَيْ اجْعَلنِي رَاضِيًا بذلكَ[1].

إذا يستخيرُ العَبْدُ مما يَهُمُّهُ ... يصَلِّي ويدعو رَكعتين على السَّوَا

ويطلبُ فيه الخيرَ لم يبغِ غَيْرَهُ ... بصَرْفٍ وإنقاذٍ على حُكْمِ ما يَرَى[2]

٣٣- المحافظةُ عَلَى الأَذْكَارِ اليوميَّةِ:

لَوْ يَعْلَمُ الْعَبْدُ ما في الذِّكْرِ مِنْ شَرَفٍ ... أَمْضَى الْحَيَاةَ بتَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلِ

وَمِنْ أسبابِ توفيقِ اللهِ لعبدِهِ الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الأَذْكَارِ وَالأَدْعِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ الثَّابِتَةِ بِعَامَّةٍ، وعلىٰ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ بِخَاصَّةٍ، وَالَّتِي تُعْتَبَرُ كَالْغِذَاءِ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ، وكَانَ شَيْخُ الْإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ يَجْلِسُ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ ذَاكِرًا لَهُ سُبْحَانَهُ وَشَاكِرًا ويَقُولُ: «هَذِهِ غَدْوَتِي إِنْ لَمْ أَتَغَدَّاهَا خَارَتْ قُوَايَ»[3].

وكان يقولُ: «الذِّكْرُ للقلبِ مِثْلُ الماءِ للسَّمَكِ فكيفَ يكونُ حالُ السَّمَكِ إذا فارَقَ الماءَ؟»[4].

---

(١) حاشيةُ السُّيُوطِي علىٰ سُنَنِ النَّسَائِي (٦/ ٨).

(٢) دواوينُ الشِّعْرِ الْعَرَبِي (٤/ ٤٦).

(٣) الوابلُ الصَّيِّبُ (٤٢).

(٤) المَرْجِعُ السَّابِقُ (٤٢).

وَيَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بِهَذِهِ الأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ لَهُ، وَازْدِيَادُ الْإِيمَانِ، وَتَيَسُّرُ الْأُمُورِ، ولزومُ التوفيقِ، وَسُرُورُ الْقَلْبِ وَأُنْسُهُ، وَطُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وَرَاحَةُ الْبَالِ، كَمَا يَحْصُلُ بِهَا الْحِفْظُ مِنَ الآفَاتِ وَالشُّرُورِ.

عَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ فِي كُلِّ لحظةٍ فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَذْكُرُ

٣٤- الدُّعاءُ:

ومفتاحُ تَوْفِيقِ الفتى صِدْقُ رَغْبَةٍ ورَهْبَتُهُ ثُمَّ الدُّعاءُ المُكَرَّمُ[١]

الدعاءُ وكَثْرَةُ اللُّجوءِ إلىٰ اللهِ بالسؤال في الأمورِ كُلِّها، من أسبابِ التوفيقِ وأَنْفَعُ الدعاءِ طَلَبُ العَوْنِ علىٰ مَرْضَاتِ اللهِ ﷻ.

قال شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: «تأَمَّلْتُ أَنْفَعَ الدُّعَاءِ، فإذا هو سؤالُ العَوْنِ علىٰ مرضاتِهِ - أي مرضاةِ اللهِ - ثم رأَيْتُهُ في الفاتحةِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥][٢].

وقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

«أَجْمَعَ العارفون علىٰ أنَّ كُلَّ خيرٍ فَأَصْلُهُ بتوفيقِ اللهِ للعَبْدِ وكُلَّ شَرٍّ فأَصْلُهُ خُذْلانُهُ لعبدِهِ وأَجْمَعوا أَنَّ التوفيقَ أَنْ لا يَكِلَكَ اللهُ إلىٰ نفسِكَ وأَنَّ الخُذلانَ أَنْ يُخَلِّيَ بينَكَ وبَيْنَ نفسِكَ فإذا كانَ كُلُّ خيرٍ فأَصْلُهُ التوفيقُ وهو بِيَدِ اللهِ لا بِيَدِ العَبْدِ فَمِفْتاحُهُ الدُّعاءُ والافْتقارُ وصِدْقُ اللُّجوءِ والرَّغْبةِ والرَّهْبةِ إليه فمتىٰ أَعْطَىٰ العَبْدَ هذا المفتاحَ

---

(١) القصائد الزهديات (١/ ٢٤١).

(٢) «مدارجُ السَّالكين» (١/ ١٠٠).

فقد أرادَ أنْ يفتحَ له ومتىٰ أضَلَّهُ عن المفتاحِ بَقِيَ بابُ الخير مُرْتَجًا دُونَهُ»(١).

وقال ابنُ سعديٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الدعاءُ سلاحُ الأقوياء والضُّعَفاءِ وملاذُ الأنبياءِ والأَصفياءِ وبِهِ يَسْتَدْفِعُونَ كُلَّ بلَاءٍ»(٢).

٣٥- أهليَّةُ المَحَلِّ:

ولَسْتُ بِمُمْتَنٍّ عليه بِطَاعَتِي ... لَهُ الْمَنُّ في التيسير لِلْحَسَنَاتِ(٣)

من أعظمِ أسبابِ توفيقِ اللهِ لعبدِهِ أهليَّةُ المَحَلِّ وهو أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ قلبًا مُنيبًا ونفسًا أمَّارةً بالخيرِ ولم يجعلْ له توجهًا إِلَّا لِكُلِ خَيْرٍ وبِرٍّ، ويجعلُ بينَهُ وبينَ الشَّرِّ حجابًا بحيثُ تنفرُ منه النفسُ كَمَنْ عايَنَ الجنةَ والنارَ أَمَامَهُ فليسَ له توجهٌ لغيرِ الجَنَّةِ فهذا حالُ مَنْ جَعَلَ اللهُ قلبَهُ أهلًا لقَبُولِ الخير والصلاحِ.

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٣٩]. أي عليمٌ بنيَّاتِهِم الصالحةِ والفاسدةِ، عليمٌ بِمَنْ يستحقُّ التوفيقَ فيوفِّقُهُ ويُلْهِمُهُ رُشْدَهُ ويقيِّضُهُ للعملِ الصالحِ الذي يرضَىٰ به عَنْهُ، وبِمَنْ يستحقُّ الخُذْلانَ والطَّرْدَ مِنْ جَنابِهِ الأعظَمِ الإلهيِّ الذي مَنْ طُرِدَ عن بابِهِ فقد خابَ وخَسِرَ في الدنيا والآخرة»(٤).

قال أستاذُنا عبد الكريم العِماد - حفظهُ اللهُ -:

ومَنْ يُعْطِهِ الرحمنُ نفسًا مُنيبَةً ... وأَمَّارةً بالخيرِ تَسْعَى إلى البِرِّ

---

(١) «الفوائدُ» (٩٧).

(٢) «مجموعُ مؤلفاتِهِ» (٢٣/ ٧٢٦).

(٣) «الْقَصَائِدُ الزُّهْدِيَّاتُ» (١/ ٥٦٧).

(٤) الأَنْوَارُ السَّاطِعَاتُ (١/ ١٨٠) مُحَمَّدُ السَّلْمانُ.

فـذلكَ فَـضْلُ اللهِ يُعْطيـهِ مَـنْ يَـشا ... وليس على مَنْ يصطفي اللهُ من ضُرِّ

٣٦- التوفيقُ للأَسبابِ المُتَقَدِّمةِ:

إذا لـمْ يَكُـنْ عـونٌ مـن اللهِ للفتَـى ... فـأَكْثَرُ مـا يجنـي عليـهِ اجْتهـادُهُ(١)

ما تَقَدَّمَ إنما هي أسبابٌ فلا يُعَوَّلُ عليها وحْدَها بَلْ يُعَوَّلُ علىٰ اللهِ وحْدَهُ الذي إذا أرادَ شيئًا هَيَّأَ أسبابَهُ فَرُبَّما سَعَىٰ الفَرْدُ بِكُلِّ سَبَبٍ فَلَمْ يُفْلِحْ، ثُمَّ يَقَعُ له سَبَبٌ لم يَمْتَهِدْ له وسيلةً قَطُّ، فإذا هو عند بُغْيَتِهِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: أَي يوفِّقُ اللهُ لإصابةِ الحَقِّ ومعرفتِهِ والاستجابةِ إليه - يُوَفِّقُ - مَنْ يشاءُ من عبادِهِ، مِمَّنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ، وطابَتْ طويَّتُهُ، وذلك بإلهامِهِ الاقْتناعَ بِهِ، وشَرْحِ صَدْرِهِ إليه، بعد أَنْ وفَّقَهُ إلىٰ حُسْنِ النَّظَرِ في آياتِهِ التي نَوَّرَ اللهُ بها السماواتِ والأَرْضَ، وفيما أَنزلَ علىٰ رسولِهِ من نورِ القرآنِ كما قال - تعالىٰ -: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ حتىٰ اطْمَأَنَّ بها فؤادُهُ، واهتدىٰ إلىٰ الحَقِّ والرَّشادِ. وفي رَبْطِ الهدايةِ بمشيئةِ اللهِ - تعالىٰ - إيذانٌ بأنَّ مناطَها هو مشيئتُهُ، وليستِ الأَسبابُ وحْدَها، فهو أَعلَمُ بِمَنْ يستحقُّها.

قال الشاعِرُ:

إذا لـم يَـكُ التوفيـقُ عونًـا لطالـبٍ ... طريـقَ الهـدى أَعْيَـتْ عليـهِ مَطالِبُـهْ(٢)

---

(١) التَّمْثِيلُ والْمُحاضَراتُ (١٠).

(٢) التَّفْسِيرُ الْوَسِيطُ (٦/ ١٤٢٤).

ويعجبني قولُ أبي فِراسٍ:

إذا كـــانَ غيـــرُ اللهِ للمـــرءِ عُـــدَّةً ... أَتَتْـــهُ الرَّزَايَـــا مِـــنْ وُجُـــوهِ الفَوَائِـــدِ

فَقد جَرَّتِ الحَنْفاءُ[1] حَتفَ حُذَيْفَةٍ ... وكـــانَ يراهـــا عُـــدَّةً للـــشَّدائِدِ[2]

(١) الحَنْفَاءُ: اسمُ فَرَسٍ لحُذَيْفَةَ بنِ بَدْرٍ الفزاريِّ كانَتْ سَبَبَ هلاكِهِ. انظر: «تاجُ العروسِ» (١٦/ ٥٤).

(٢) ديوانُ أبي فِراسٍ (١١٣).

أسبابُ الخُذْلانِ

ما من شَكٍّ أَنَّ أسبابَ الخُذْلانِ كثيرةٌ وها أنا أذكر أهَمَّها فمنها:

١- التعلُّقُ بغيرِ اللهِ:

وكُـلُّ ذَنْـبٍ سـوى الإشـراكِ يَغْفِـرُهُ ... ربي لمن شاءَ ليس الشركُ مغتفر(١)

ومن أسباب الخذلانِ التعَلُّقُ بغير اللهِ من حَجَرٍ أو شَجَرٍ أو وليٍّ ومَنْ تعلَّقَ بغيرِ الله وُكِلَ إلىٰ نفسِهِ ومن وُكِلَ إلىٰ نفسِهِ فهو المخذولُ لا مَحَالَةَ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأعظَمُ الناسِ خُذْلانًا مَنْ تعلَّقَ بغيرِ اللهِ، فإنَّ ما فاتَهُ مِن مَصالحِهِ وسعادتِهِ، وفلاحِهِ أَعْظَمُ مما حَصَلَ له مِمَّنْ تعلَّقَ بِهِ، فهو معرَّضٌ للزَّوالِ والفَواتِ، ومَثَلُ المتعلِّقِ بغيرِ اللهِ، كَمَثَلِ المستَظِلِّ من الحَرِّ والبردِ ببيتِ العنكبوتِ وهو أوهَنُ البيوتِ كما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: ٢٢]. مذمومًا لا حامدَ لَكَ مخذولًا لا ناصِرَ لَكَ»(٢).

بَنُـو الـشِّرْكِ لا يَنْكِـرُونَ الْفَـسَادَ ... ولا يَعْرِفُـونَ مَـعَ الْجَـورِ قـصْدا

ولَا يَرْدَعُـونَ عَـنِ الْقَتْـلِ نَفْـسًا ... وَلا يتركُـونَ مِـنَ الْفَتْـكِ جَهْـدا(٣)

٢- الرِّيَاءُ ومُلَاحَظَاتُ الْمَخْلُوقِينَ:

ثـوبُ الرِّيـاءِ يَـشِفُّ عَمَّـا تَحْتَـهُ ... فـإذا الْتَحَفْـتَ بـه فإنَّـكَ عـارِ(٤)

---

(١) «مَجْمَوعَةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّاتُ» (٢/ ٢٨).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (١/ ٤٥٥).

(٣) دِيوانُ ابنِ الخياط (١٩٦).

(٤) «الحماسَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ» (٢/ ١٢٦٣).

من أسبابِ الخُذْلانِ الرياءُ وملاحظاتُ المخلوقين، وذلك داءٌ مُهْلِكٌ ولا يُذْهِبُهُ إلا التوجُّهُ إلىٰ اللهِ وَحْدَهُ لا شريكَ له وإنَّ الناسَ لا يملِكون ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

والمُرائي يهتِكُهُ اللهُ ويكشفُ عيوبَهُ إلىٰ الناسِ في الدنيا والآخرةِ ويُظْهِرُ كَذِبَهُ وغَرَضَهُ الفاسدَ دَلَّ علىٰ ذلك حديثُ جُندبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، ومَنْ يراءِ يراءِ اللهُ بِهِ**»(١).

وعَمَلُ المرائي باطلٌ لا ثوابَ فيه ويأْثَمُ به دَلَّ علىٰ ذلك حديثُ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: قال اللهُ ﷻ: «**أنا أغنىٰ الشُّركاءِ عن الشرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أشركَ فيه معي غيري تركْتُهُ وشِرْكَهُ**»(٢).

لقد خَسِرَ السَّاعي إلى غيرِ ربِّهِ ... نفاقًا وهَلْ بعد الرِّياءِ نِفاقُ
ستلقى الذي قَدَّمْتَهُ وَذَخرتَهُ ... وِفاقًا ألا إنَّ الجزاءَ وِفاقُ

٣- فسادُ النِّيَّةِ:

فلو أنني أَخْلَفْتُ للهِ نِيَّتي ... لأَشْغَفَني في كُلِّ أمرٍ أُرِيدُهُ(٣)

من أسبابِ الخُذلانِ فسادُ النِّيَّةِ وعَدَمُ إخلاصِ العَمَلِ للهِ قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

النيَّةُ هي رَأْسُ الأمْرِ وعمودُهُ وأساسُهُ وأصْلُهُ الذي يُبْنَىٰ عليه، فإنَّها رُوحُ العَمَلِ وقائِدُهُ وسائِقُهُ والعملُ تابعٌ لها يَصِحُّ بِصِحَّتِها ويَفْسُدُ بفسادِها، وبها يُسْتجْلَبُ

(١) «رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ» (٦٤٩٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٩٨٧).
(٢) «رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (٢٩٦٥).
(٣) الأَمَاليُّ الشَّجَرِيةُ (١/ ٢٦٦).

التوفيقُ وبعَدَمِها يَحْصُلُ الخذلانُ، وبِحَسَبِها تتفاوتُ الدَّرَجاتُ في الدنيا والآخرةِ»[١].

٤- فسادُ القَلْبِ:

فيا مُؤْثِرَ الدُّنْيَا على الدِّينِ إنَّما ... على قلبِكَ الرَّانُ الذي قد تَحَكَّمَا[٢]

ومن أسبابِ الخُذلانِ فسادُ القلبِ ولا يكونُ فسادُ القلبِ وزَيْغُهُ إلَّا مِنْ فِتَنِ الشُّبُهاتِ أو الشَّهَواتِ حينَها يُسْلَبُ منهُ التوفيقُ ويحيقُ به الخُذلانُ.

قال اللهُ ﷻ عن اليهودِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصَّفُّ: ٥].

وقالَ ﷻ عن المؤمنين الذين دافعوا واردَ الشُّبُهاتِ والشَّهوَاتِ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢﴾ [الأحزابُ: ٢٢].

٥- اليَأْسُ من رحمةِ اللهِ:

كفانا اللهُ شَرَّ اليأسِ إني ... لِبُغْضِ اليأسِ أُبْغضُ كُلَّ آسي[٣]

اليأْسُ من رحمةِ اللهِ من أعظمِ أسبابِ الخُذْلانِ وكيفَ يَيْأَسُ المؤمِنُ واليأْسُ والقنوطُ من رحْمةِ الله بابٌ من أبوابِ الكُفْرِ؟!!

---

(١) «أَعْلَامُ الْمُوقَعِينِ» (١/ ٢٧٧).

(٢) الْقَصَائِدُ الزُّهْدِيَّاتُ (١/ ٣٩٠).

(٣) الأَغَاني (١٩/ ٤٢٤).

قال صاحبُ الطحاويةِ: «والأَمْنُ واليأْسُ ينقلانِ من مِلَّةِ الإسلامِ يعني الأَمْنَ من مَكْرِ اللهِ، واليَأْسَ من رحمةِ اللهِ، فالمُومنُ موقنٌ بصِفاتِ اللهِ، ويُوقِنُ أَنَّه الرَّحمنُ الرحيمُ فكيفَ يَيأسُ من رحمتِهِ وقد عَلِمَ أَنَّ اللهَ ادَّخَرَ عنده تسعةً وتسعين رحمةً ليومِ القيامةِ، وأَنْزَلَ رحمةً وزَّعَها علىٰ الخلقِ، فبها تَتَرَاحَمُ الخلائِقُ، وبها تَرفَعُ الدابَّةُ حافِرَها عن وَلَدِها فكيفَ يَيأسُ من هذه الرحمةِ الواسعةِ.

اللهُ ﷻ أرحَمُ الراحمينَ، فاليأْسُ من رحمةِ اللهِ ﷻ والإلقاءُ باليَدِ يأْسًا من الفَرَجِ، هو من الكُفْرِ والعياذُ باللهِ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

وإنما يُسْتَحْسَنُ اليأْسُ مما في أَيدي الناسِ قيلَ لأَعْرابيٍّ: ما صناعَتُكَ؟ قال: حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ وسُوءُ الظنِّ بالناسِ. قال الشاعِرُ:

اليأْسُ أبقى لماءِ الوَجْهِ من طَمَعٍ ... والصبرُ أَفضلُ في المكروهِ مِنْ جَزَعِ
ولستَ مُدْرِكَ شيءٍ أنتَ طالِبُهُ ... إنْ كانَ شيئًا بِهِ الأقدارُ لَمْ تَقَعِ[1]

٦- مخالفةُ الكتابِ والسُّنَّةِ:

ودَعْ كُلَّ قولٍ عندَ قولِ محمَّدٍ ... فما آمنٌ في دينِهِ كَمُخَاطِرِ[2]

من أسبابِ الخذلانِ تعمُّدُ مخالفةِ الكتابِ والسُّنَّةِ بلْ إِنَّ مخالفةَ الكتابِ والسنَّةِ بابٌ من أبوابِ الزَّيْغِ والهلاكِ.

قال أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه: «لستُ تاركًا شيئًا كان رسولُ اللهِ ﷺ يعملُ بِهِ إلا

---

(١) الْبَصَائِرُ والذَّخَائِرُ (١٨٦).

(٢) «مِنْ رَحِيقِ الشِّعْرِ» (١٧٧).

عَمِلْتُ به، إني أخشىٰ إنْ تركتُ شيئًا من أَمْرِهِ أنْ أَزيغَ»[١].

وعلقَ ابنُ بطةَ رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ هذا بِقولِهِ:

هذا - يا إخواني - الصديقُ الأكبرُ يَتَخَوَّفُ علىٰ نفسِهِ الزيغَ إنْ هو خالَفَ شيئًا من أَمْرِ نبيِّهِ ﷺ فماذا عسىٰ أَنْ يكونَ من زمانٍ أضحىٰ أهلُهُ يستهزئون بنبيِّهم وبأوامِرِهِ، ويتباهون بمخالفتِهِ، ويسخرون بسنَّتِهِ؟ نسألُ اللهُ عِصمةً من الزلَلِ ونجاةً من سوءِ العملِ»[٢].

٧- العُجْبُ:

يـا مظهـرَ العُجْـبِ إعجابًـا بـصُورتِهِ ... أَنْظُـرْ خَـلَاءَكَ فـإِنَّ النَّـتْنَ تَثْرِيـبُ[٣]

ومن أسبابِ الخُذْلانِ العُجْبُ ويُعْرَفُ بأَنَّهُ الزَّهْوُ والكِبْرُ واستحقاقُ المرءِ رتبةً وهو لا يسْتحقُّها والإحساسُ بالتميزِ، والافتخارُ بالنفسِ.

وعَرَّفَهُ القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إعجابُ المرءِ بنفسِهِ هو: ملاحَظَتُهُ لها بعينِ الكمالِ والاستحسانِ مع نسيانِ مِنَّةِ اللهِ - تعالىٰ -؛ فإنْ رفَعَها علىٰ الغيرِ واحْتَقَرَهُ فهو الكبرُ المذمومُ»[٤].

والمُعْجَبُ يَسْتَعْظِمُ أَعمالَهُ وطاعاتِهِ ويَمُنُّ علىٰ ربِّهِ بفِعْلِها ويظُنُّ أَنَّهُ عند اللهِ بمكانٍ فلا تَعْجَبْ أنْ يَصْحَبَهُ الخذلانُ إن لم يُدْرِكْهُ اللهُ برحمةٍ منه.

---

(١) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٠٥)، وأبُو دَاودَ (٣/ ١٤٣)، وصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ في «صَحِيحِ أَبي دَاودَ» (٢٩٧٠).

(٢) الإبانةُ (١/ ٢٤٥).

(٣) «أدبُ الدُّنْيا والدِّينِ» (٢٣٨).

(٤) «طرحُ التَّثْرِيبِ» (٨/ ١٦٨).

قال اللهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

قال جَعْفَرُ: «اسْتجلابُ النَّصْرِ في شيءٍ واحدٍ، وهو الذِّلَّةُ والافتقارُ والعَجْزُ... وحلولُ الخذلانِ بشيءٍ واحدٍ وهو العُجْبُ...»(١).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بينما رَجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مرجلٌ جمتُهُ إذ خَسَفَ اللهُ به فهو يَتَجَلْجَلُ(٢) إلىٰ يومِ القيامةِ**»(٣).

ويُعجبني الذي يقولُ:

عَجِبْتُ من مُعْجَبٍ بصورتِهِ ... وكان بالأمسِ نطفةً مَذِرَةْ

وفي غَدٍ بعد حُسْنِ صورتِهِ ... يصيرُ في اللَّحْدِ جِيفةً قَذِرةْ

وهو على تِيهِهِ ونَخْوَتِهِ ... ما بَيْن ثوبَيْهِ يحملُ العَذِرَةْ(٤)

٨- الذنوبُ والمعاصي:

تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذُّنوبِ وتَرْتَجِي ... دَرَكَ الجِنانِ بها وفَوْزَ العابدِ(٥)

ومن أسبابِ الخذلانِ الذنوبُ والمعاصي بل الذنوبُ والمعاصي سببٌ لهوانِ

---

(١) «تَفْسِيرُ السَّلْمِيِّ» (١/ ٢٧٢).

(٢) يتجلجل: يتحرَّكُ فيها أي: يغوصُ في الأرضِ حين يُخْسَفُ به. (لسان العرب) (١١٠/ ٢١).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٨٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٨٨).

(٤) أدبُ الدُّنْيَا والدِّينِ (٢٣٧).

(٥) الذخائر والبصائر (١/ ١٦٨).

العبدِ علىٰ رَبِّهِ، ومتىٰ هانَ العَبْدُ علىٰ اللهِ ﷻ لم يكرمْهُ أَحَدٌ، كما قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]. وإذا هانَ العبدُ علىٰ اللهِ انقطعتْ عنه موارِدُ التوفيقِ واتصلتْ به أسبابُ الخذلانِ.

إذا كـان هـذا فِعْـلَ عَبْـدٍ بنفْـسِهِ فمَـنْ ذا لَـهُ مـن بعـدِ ذلـك يُكْـرَمُ[١]

فلا إكرامَ أعلىٰ من إكرامِ اللهِ العبدَ علىٰ شكرِهِ، ولا إهانَةَ أوضَعُ من إهانتِهِ علىٰ كُفرِهِ[٢].

فاحذرِ الذنوبَ فهي من عوائِقِ التوفيقِ قال ابنُ عثيمينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذنوبُ قد تَحُولُ بينَ الإنسانِ وتوفيقِهِ فلا يُوفَّقُ ولا يُجابُ دعاؤه»[٣].

يـا أسـيرَ الـذنوبِ تُـبْ عائـدًا منـ ـها بغفارهـا المخـوفِ عقابُـهْ
فقـرينُ التوفيـقِ مـن دأْبُـهُ في كـل مـا شـاءَ صـبرُهُ واحتِـسَابُهْ[٤]

ومتىٰ تابَ العبدُ وأنابَ جاءَهُ التوفيقُ يطلُبُهُ كما تطلُبُ الأُمُّ وحيدَها وقد فقدتْهُ، فلا جَرَمَ فاللهُ ﷻ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبدِهِ حين يتوبُ.

٩- المجاهرةُ بالْمعَاصِي:

فَكَـمْ مُعْلِـنٍ لِلْفِطْـرِ والنَّـاسُ صُـوَّمٌ يُجَـاهِرُ في الإفطـار في الطُّرقَـاتِ[٥]

---

(١) «الداء والدواء» (١٢٣).
(٢) «فتح المجيدِ في شرحِ التوحيدِ» (٤/ ١٨١٨).
(٣) شَرْحُ العقيدةِ الواسطيةِ (١/ ٣٢١).
(٤) «الصبر مطية النجاح» (٦١).
(٥) «القصائدُ الزهدياتُ» (١/ ٣٣٠).

ومن أسبابِ الخذلانِ المُجَاهَرَةُ بالمعاصي؛ لأَنَّ ذلك استخفافٌ بأوامرِ اللهِ وتشجيعٌ علىٰ ارتكابِها فعنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ أمتي مُعَافًىٰ إلا المجاهرون، وإنَّ من الإجهارِ أَنْ يعملَ العبدُ بالليلِ عملًا ثمَّ يُصبحُ قد سَتَرَهُ ربُّهُ فيقولُ: يا فلانُ قد عمِلتُ كذا وكذا وقد باتَ يَسْتُرُهُ ربُّهُ ويُصْبحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عليه**»(١).

وما نَشْهَدُهُ في وقتنا من ارتكابِ المعاصي والآثامِ والموبقاتِ والمجاهرةِ بها من أسبابِ الخذلانِ والعقوباتِ العامَّةِ.

عَجِبْتُ لِذِي اغْتِرَارٍ واعْتِزازٍ ... وذي سفرٍ أَطَلَّ علىٰ وَفَازِ

يُجَاهِرُ بالكبائرِ عَدْل رَبٍّ ... علىٰ مِثْقَالِ ذرتها يُجَازِي(٢)

١٠- التعرُّضُ لِلْفِتَنِ(٣):

إنَّ أُولِي العلمِ بما في الفِتَنِ ... تَهَيَّبُوها مِنْ قديمِ الزَّمَنْ(٤)

من أسبابِ الخذلانِ التعرضُ للفتنِ والتَّطَلُّعُ لها والفِتَنُ في عصرنا عَمَّتْ وطَمَّتْ كفِتَنِ النساءِ والحزبيَّةِ، ومجالِسِ البِدَعِ والضَّلالِ، ومجالسِ الخنا والزورِ وما تبثُّها القنواتُ ووسائلُ التواصُلِ من سمومٍ تَفْتِكُ بدينِ المسلمِ والمعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ،

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٦٩)، ومسلمٌ (٢٩٩٠).

(٢) «القصائدُ الزهدياتُ» (٢/ ٣٦٣).

(٣) انظر كتابي: «آدابُ التعامُلِ مع الفِتنِ» ففيه ما يروِّحُ القلبَ ويَشْفي ويكفي إنْ شاءَ اللهُ.

خُذْهُ وإنْ لَمْ يَرْتَجِعْ مَعْرُوفَهُ ... مَحْضُ إذا مُزِجَ الرجالُ فُهذَّبُ

(٤) ديوانُ أبي إسحاقَ الإلبيريِّ (٩٣).

والنبيُّ ﷺ يأْمُرُنا بالبُعْدِ عن الفِتَنِ والهروبِ منها وعَدَمِ الاستشرافِ لها أو التعرُّضِ لها بحالٍ فقالَ ﷺ عن الفتنِ: «**مَنِ اسْتشرفَ لها اسْتَشْرَفَتْهُ**»(١).

أي: مَنْ تطلَّعَ لها ولو بنظرةٍ لا بُدَّ أَنْ تستشرِفَهُ وتُصِيبَهُ منها بقَدْرِ ذلك فملكومٌ أو معورٌ أو هالكٌ.

وقال ﷺ عن الفتنِ: «**مَنْ وَجَدَ منها ملجأً أو معاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**»(٢).

أي من وَجَدَ منها فرارًا وهروبًا فلْيَهْرُبْ.

وقالَ ﷺ: «**مَنْ سَمِعَ بالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عنه**»(٣) أي من سَمِعَ بِهِ في مكانٍ ذَهَبَ إلىٰ غيرِهِ فإذا كان في المشرِقِ ذَهَبَ إلىٰ المغربِ والحديثُ وإن كان عن الدجالِ فهو عامٌّ في جميعِ الفِتَنِ، وقد توَالتْ تحذيراتُ العلماءِ من الفتنِ ونصائحِهم في البُعْدِ عنها وعدمِ التعرضِ لها ما لو جُمِعَتْ لاحْتجْنا إلىٰ كراريسَ لكنْ يكفي من الزادِ ما يُبَلِّغُ المَحَلَّ.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من قارَبَ الفتنةَ بَعُدَتْ عنه السلامةُ ومن ادَّعَىٰ الصَّبْرَ وُكِلَ إلىٰ نَفْسِهِ، ورُبَّ نظرةٍ لم تُنَاظَرْ»(٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإياكَ أَنْ تَغْتَرَّ بعزمِكَ علىٰ تركِ الهوىٰ مع مقاربةِ الفتنةِ؛ فإنَّ الهوىٰ مكايدُ، وكمْ من شجاعٍ في الحربِ اغْتيلَ فأتاهُ ما لم يَحْتَسِبْ»(٥).

---

(١) رواهُ البُخاريُّ (٣٤٠٧)، ومسلمٌ (٢٨٨٦).

(٢) رواهُ البُخاريُّ (٧٠٨١)، ومسلمٌ (٢٢١١).

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داود (٤٣١٩)، وصححه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٣٦٢٩).

(٤) «صَيْدُ الْخَاطِرِ» (٤١).

(٥) «المرجعُ السَّابِقُ» (٤١).

وقال: ما رأيتُ فتنة أعظمُ من مقاربةِ الفتنةِ وقَلَّ أَنْ يقارِبَها إِلَّا مَنْ يَقَعُ فيها، ومن حامَ حولَ الحِمَىٰ يوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فيه»(١).

وقال ابنُ حزمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا تَلُمْ مَنْ عَرَّضَ النَّفْسَ لما ... لَيسَ يرضَى غَيْرُهُ عند المِحَنْ

لا تُقَرِّبْ عرفَجًا من لَهَبٍ ... ومتى قَرَّبْتَهُ ثارتْ دُخَنْ(٢)

وقال:

لا تُتْبِعِ النَّفْسَ الهَوَى ... ودَعِ التعرُّضَ للمِحَنْ

إبليسُ حيٌّ لم يَمُتْ ... والعينُ بابٌ للفِتَنْ(٣)

١١- اتِّباعُ الهَوَى:

إنَّ الهَوانَ هو الْهَوَى قُلِبَ اسْمُهُ ... فإذا هويتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا(٤)

من أسبابِ الخذلانِ اتِّباعُ الهَوَىٰ؛ لأَنَّ اتباعَ الهوىٰ يغلقُ علىٰ العبدِ أبوابَ التوفيقِ، ويفتحُ له أبوابَ الخذلانِ، فتراهُ يلهَجُ بأنَّ اللهَ لو وَفَّقَهُ لكان كذا وقد سَدَّ علىٰ نفسِهِ طُرُقَ التوفيقِ، باتباعِهِ هواهُ.

قالَ الفضيلُ بن عياضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «من اسْتَحْوَذَ عليه الهوىٰ واتباعُ الشهواتِ انقطعَتْ عنه مواردُ التوفيقِ»(٥).

---

(١) «الْمَرجِعُ السَّابِقُ» (٣٥٠).
(٢) «طَوْقُ الْحَمَامَةِ» (١٢٨).
(٣) «الْمَرجِعُ السَّابِقُ» (١٢٧).
(٤) أدَبُ الدُّنْيا والدِّينِ (٢٩).
(٥) رَوْضَةُ الْمُحِبينَ (٤٧٩).

آهِ ما أقْبَحَ اتباعَ الهوىٰ وأشَدَّ فَتْكِهِ وقلةَ العلمِ بِهِ فيكفي أنَّ اللهَ وصَفَه بأنَّهُ إلهٌ معبودٌ ألم يَقُلْ ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

وأخبر ﷻ أنَّ اتباعَ الهوىٰ نهايةُ الضَّلالِ فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ثلاثٌ مهلكاتٌ: شُحٌّ مطاعٌ وهوًى مُتَّبَعٌ وإعجابُ المَرْءِ بنَفْسِهِ**»(١).

قال ابنُ رَجَبٍ رحمه الله: «إنَّ جميعَ المعاصي تَنْشَأُ من تقديمِ هَوىٰ النفسِ علىٰ محبَّةِ اللهِ ورسولِهِ، وقد وَصَفَ اللهُ المشركينَ باتباعِ الهوىٰ في مواضِعَ من كتابِهِ، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وكذلكَ البِدَعُ، إنما تنشَأُ من تقديمِ الهوىٰ علىٰ الشرْعِ، ولهذا يُسَمَّىٰ أهلُها أهْلَ الأهواءِ وكذلك المعاصي، إنما تَقَعُ من تقديمِ الهوىٰ علىٰ محبَّةِ اللهِ ومحبةِ ما يُحبُّهُ، ومن كانَ حُبُّهُ وبُغضُهُ وعطاؤه ومنعُهُ لهوىٰ نَفْسِهِ، كان ذلك نقصًا في إيمانِهِ الواجِبِ، فيجبُ عليه التوبَةُ من ذلك، والرجوعُ إلىٰ اتباعِ ما جاءَ بِهِ الرسولُ ﷺ من تقديمِ محبَّةِ اللهِ ورسولِهِ، وما فيه رضا اللهِ ورسولِهِ علىٰ هَوَىٰ النفسِ ومراداتِها كُلِّها»(٢).

وقال المعلميُّ رحمه الله: «وأما من كرهَ الحَقَّ واستسلمَ للهوىٰ فإنما يستحقُّ أنْ يزيدَهُ اللهُ ضلالًا»(٣).

---

(١) (صحيحٌ) أخْرَجَهُ الطبرانيُّ في الأوْسَطِ (٥٤٥٢) وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «الصحِيحةِ» (١٨٠٢).
(٢) «جَامِعُ الْعُلومِ وَالْحِكَمِ» (٢/ ٣٩٨).
(٣) القائدُ إلىٰ تصحيح الْعَقَائِدِ (٢٠).

وقال أعرابيٌّ: الهوىٰ هوان ولكن غَلِطَ باسْمِهِ، فأخَذَهُ الشاعِرُ وقال:

إنَّ الهـوانَ هـو الهـوى قُلِـبَ اسْـمُهُ ... فـإذا هويـتَ فَقَـدْ لَقِيـتَ هوانـا[1]

ومن مَنْثُورِ الشعرِ:

إذَا مَـا رَأيْـتَ المـرءَ يَعْتَـادُهُ الهـوى ... فقـد ثَكِلْتَـهُ عِنْـدَ ذَاكَ ثواكِلُـهْ

وقـد شَـمَّتَ الأعـداءَ جهـلًا بنفـسِهِ ... وقـد وَجَـدَتْ فيـهِ مقـالًا عواذِلُـهْ

وما يَرْدَعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى ... من الناسِ إلا حَازِمُ الرَّأيِ كامِلُهْ[2]

١٢- الفسادُ الخُلُقِيُّ:

إنَّمـا الأُمَـمُ الأخـلاقُ مـا بَقِيَـتْ ... فـإنْ هُـمُ ذَهَبَـتْ أخلاقُهُـمْ ذَهَبُـوا[3]

من أسبابِ الخذلانِ الفسادُ الخُلُقِيُّ؛ فالمعاصي بريدُ الكُفْرِ، ومتىٰ حَلَّتِ المعاصي في بيتٍ من البيوتِ إلا وَجَدْتَ أهلَها في تَفَرُّقٍ وتشرذمٍ وتناحُرٍ يأكُلُ بعضُهم بعضًا.

كالنـــارِ تَأْكُـــلُ بَعْـــضَها ... إنْ لـــم تَجِـــدْ مـــا تأْكُلُـــهْ[4]

وقُلْ في ذلكَ في الحاراتِ أو المُدُنِ أو الدُّوَلِ وهذا واقعٌ ما لَهُ من دافعٍ.

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا عند رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «**كيفَ أنتمْ إذا وَقَعَتْ فيكم خَمْسٌ؟ وأعوذُ باللهِ أَنْ تكونَ فيكم أو تُدْرِكوهُنَّ: ما ظَهَرتِ الفاحِشَةُ في قومٍ - قطُّ - يُعْمَلُ بها علانيةً؛ إلا ظَهَرَ فيهم الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكُنْ في أسلافِهِم، وما مَنَعَ**

(١) ذَمُّ الهَوىٰ لابنِ الْجَوزِي (٣٣).
(٢) أدبُ الدُّنيا والدينِ (٤٠).
(٣) «شِعْرُ شوقي في ميزانِ النَّقْدِ» (٨٥).
(٤) «الْعِقْدُ الْفَرِيدُ» (٢/ ١٧٤).

قومٌ الزكاةَ، إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السماءِ ولولا البهائِمُ لم يُمْطروا، وما بَخَسَ قومٌ المكيالَ والميزانَ؛ إلا أُخِذوا بالسنينَ وشِدَّةِ المؤنَةِ وجَوْرِ السلطانِ، ولا حَكَمَ أُمراؤهم بغيرِ ما أَنْزَلَ اللهُ؛ إلا سَلَّطَ اللهُ عليهم عَدُوَّهم فاسْتَنْقَذوا بعضَ ما في أَيديهم، وما عَطَّلُوا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيِّهِ إلا جَعَلَ اللهُ بأْسَهُم بينَهم»(١).

ومِثْلُ هذهِ الأمورِ قد حصلتْ في أُمَّةِ الإسلامِ وتَحْصُلُ فلا يَأْمَنُ العبادُ من الخذلانِ وأَنْ يُسَلِّطَ اللهُ عليهم أَضْعَفَ جُنْدِهِ كالجرادِ كما قيل:

أَقَمْنا كُلَّ سوقٍ للفسادِ ... فَهُوجِمْنا بأسرابِ الجَرادِ
إلهي لا تُؤاخِذْنا فإنَّا ... لَنَبْرَأُ من فسادِ ذوي الفسادِ(٢)

ومِنْ أَحْسَن مَا قِيلَ في الأَخْلَاقِ:

صلاحُ أمْرِكَ للأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ ... فَقَوِّمِ النَّفْسَ بالأخْلَاقِ تَسْتَقِمِ(٣)

١٣- صُحْبَةُ السَّفَلَةِ(٤):

لا تَنْظُرَنَّ إلى امْرِئٍ ما أَصْلُهُ ... وانظرْ إلى فِعَالِهِ ثُمَّ احْكُمِ(٥)

صُحْبَةُ السَّفَلَةِ والهَمَلِ واطِّرَاحِ غيرِهم من ذوي الأَحْسَابِ من أسبابِ الخذلانِ،

---

(١) (صَحِيحٌ لِغَيْرِهِ) أَخْرَجَهُ البَيْهَقي في «شُعَبِ الإيمَانِ» (٣٣١٥)، وقال الألبَانيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ» (٢١٨٧)، صَحِيحٌ لغيْرِهِ.

(٢) «ديوانُ ابنِ سَحْنُونٍ» (٢/ ١٥٦).

(٣) «الذَّخَائِرُ والْعَبْقرِياتُ» (١/ ٥).

(٤) انظر: كتابي «رسالةٌ إلىٰ ولدي من تصاحِبْ»، وكتابي «نعمةُ الأخوةِ» تجد المؤانسةَ والمقابسةَ. إن شاءَ اللهُ.

(٥) «مُحَاضَرَاتُ الأُدَباءِ» (١/ ٦٩٩).

فالشريفُ لَا يصاحِبُ إلا شريفًا والناسُ معادِنُ فعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن أكرمِ الناسِ. قال: «... **فَعَنْ معادِنِ العربِ تسألونَ؟ خيارُهُمْ في الجاهليَّةِ خيارُهُم في الإسلامِ، إذا فَقَهُوا**».

قال ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قولُهُ: «**تجدون الناسَ معادِنَ**»(١) أي: أصولًا مختلفةً، والمعادنُ جمعُ مَعْدِنٍ، وهُوَ الشَّيْءُ المستقرُّ في الأرضِ، فتارةً يكُونُ نفيسًا، وتارةً يكُونُ خسيسًا وكَذَلِكَ النَّاسُ»(٢).

قال الأبشهِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ قرَّبَ السِّفْلَةَ واطَّرَحَ ذوي الأحسابِ والمروءاتِ استحقَّ الخُذْلانَ»(٣).

ويعجبني الذي يقولُ:

إذَا مَـا اصْـطَفَيْتَ امْـرءًا فَلْـيَكُنْ ... شَـرِيفَ النِّجَـارِ(٤) زكـيَّ الحَـسَبْ

فَنَـذْلُ الرِّجَـالِ كَنَـذْلِ النَّبَـا ... تِ، لا لِلثِّمَـارِ وَلَا لِلْحَطَـبْ(٥)

١٤- تَرْكُ الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ:

وليـتَ بنـي الـدُّنيا فُنُكِّـرَ مُنْكَـرٌ ... وعُـرِّفَ معـروفٌ وأُصْـلح مُفْـسَدُ(٦)

---

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٥٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٧٨) واللفظُ لَه.

(٢) «الفتحُ» (٦/ ٦٥٧).

(٣) مجاني الأدب (٢/ ٧٣).

(٤) النِّجَارِ - بالْكَسْرِ والضَّمِّ -: الأصْلُ.

(٥) ديوانُ البستي (١٠٦).

(٦) «ديوانُ ابنِ الروميِّ» (١٦٣٠).

من أسبابِ الخذلانِ تَركُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، لأنَّهُ يترتَّبُ علىٰ تركِهِ أمورٌ عظيمةٌ لَعَلَّ أعظمَها الهلاكُ الذي يَعُمُّ الجميعَ، وأَيُّ خذلانٍ أعظمُ من وقوعِ الهلاكِ والعذابِ.

قال اللهُ ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفالُ: ٢٥].

قال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المرادُ بتلكَ الفتنةِ التي تعمُّ الظالمَ وغَيْرَهُ هي أنَّ الناسَ إذا رأوا المنكَرَ فلمْ يُغَيِّرُوهُ عَمَّهُم اللهُ بالعذابِ صالِحَهُمْ وطالِحَهُمْ»(١).

وعن حذيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ لتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المنكرِ أو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يبعثَ عليكم عقابًا منه ثم تدعُونَهُ فلا يُستجابَ لكم**»(٢).

وعن زينبَ بنتِ جحشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: يا رسولَ اللهِ، أَنَهْلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ**»(٣).

فكُنْ - أخي - كما قيل:

آمرٌ بالمعروفِ ناهٍ عن المنكرِ ... آتٍ بالحق ماضي العزائمْ

وإذا ما أمرتَ للهِ أمرًا ... لست تخشى في اللهِ لومةَ لائِمْ(٤)

---

(١) «أَضْواءُ الْبَيَان» (١/ ٤٦١).

(٢) (حَسَنٌ) أخرجَهُ التِّرمِذِيُّ (٢١٦٩)، وحَسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيحِ التِّرمِذِيِّ» (١٧٦٢).

(٣) رواهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٠٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٨٠).

(٤) ديوانُ عَبْدِ الْغَفَّارِ الأَخْرَسِ (٣٧٩).

١٥- التأخيرُ عن الصَّفِّ الأَوَّلِ:

صَـلِّ الـصلاةَ الْخَمْـسَ أَوَّلَ وَقْتِهَـا ... إذ كُـلُّ واحـدةٍ لهـا وَقْتَـانِ(١)

من أسبابِ الخذلانِ التأخيرُ عنِ الصفِّ الأَوَّلِ في صلاةِ الجماعةِ.

فعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يزالُ قومٌ يتأَخَّرون عَنِ الصَّفِّ الأَوَّلِ حتَّىٰ يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ في النَّارِ**»(٢).

يعني أَنَّهم يُعاقبون فيكونُ الجزاءُ من جنسِ العملِ حيثُ تأَخَّروا ولم يقوموا بواجب تسويةِ الصُّفوفِ وإكمالِ الصَّفِّ الأَوَّلِ فالأولِ، فترتَّبَ علىٰ ذلك أنْ يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ في النارِ»(٣).

وربَّما تأَخَّر المرءُ عن الصفِّ الأولِ وهي سيِّئةٌ في حَقِّهِ والسيِّئةُ تقودُ إلىٰ سيئةٍ مِثْلِها فربَّما صَلَّىٰ الجماعةَ في البيتِ وربَّما صلىٰ وَحْدَهُ ثم يُصَلِّها في غيرِ وقتِها وهكذا إلىٰ أنْ يُضَيِّعَها بالكليَّةِ والعياذُ باللهِ وهذا نهايَةُ الخذلانِ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في وصفِ الجَنَّةِ:

والـسَّابقون إلـى الـصلاةِ هُـمُ الأُلـى ... فـازوا بـذاكَ الـسَّبْقِ بالإحـسانِ

سَـبْقٌ بِـسَبْقٍ والمـؤخَّرُ هاهُنـا ... مُتَـأخرٌ في ذلـك الْمَيْـدَانِ(٤)

---

(١) ديوانُ ابنِ مُشْرفٍ (٢٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٧٩) وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح أبي داود» (٦٨٢) صحيح دون قوله: في النار.

(٣) شَرحُ سُنَنِ أبي داودَ للعباد (١٦/ ٩٠).

(٤) مجموعةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّاتِ (١/ ٣٦٩).

وقال أُسْتَاذُنا العماد - حفظه الله -:

كُـنْ أوَّل النَّـاس صَـفًّا للـصلاةِ إذا ... قَامَـتْ وَكُـنْ حَاضِـرًا في أهْلِهَـا الأَوَّلِ

وَحَـاذِرْ الْكَـسَلَ المـذمومَ صَـاحِبُهُ ... فـأول التـرك مَبْـدَاهُ مِـنَ الكَـسَلِ

١٦- خذلانُ المسلمِ لأَخِيهِ المسلمِ:

ولطالمـا وَعَـدُوا بِنَـصْرِكَ في الـوَغَى ... وعَـدُوا وأَبْلَـغُ نَـصْرِهِمْ خُـذْلانُ[١]

ومن أسبابِ الخُذْلانِ خذلانُ المسلمِ لأخيهِ المسلمِ؛ لأَنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ.

فعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ وأبي طلحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالا: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما مِن امرئٍ يخذُلُ امرءًا مسلمًا في موضعٍ تُنْتَهَكُ فيه حُرْمَتُهُ، ويُنْتَقَصُ فيه من عرضِهِ، إلا خَذَلَهُ اللهُ في موطنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ، وما من امرئٍ يَنْصُرُ مسلمًا في موضِعٍ ينتقصُ فيه من عِرْضِهِ، ويُنْتَهَكُ فيه من حُرْمَتِهِ، إلا نَصَرَهُ اللهُ في موطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ**»[٢].

فتأَمَّلْ كيفَ أَنَّ خذلانَ المسلمِ لأَخِيهِ المسلمِ سَبَبٌ في خذلانِ اللهِ له، كما أَنَّ نُصْرةَ المسلم سببٌ في نصرِ اللهِ.

ويعجبني قولُ ابنِ الروميِّ:

اتَخَـذْتُكُمُ دِرْعًـا وتِرْسًـا لتـدْفَعُوا ... نِبـالَ العِـدَى عنـي فكنـتم نِـصالَها

وقـد كنـتُ أَرْجـو مـنكُمُ خَيْـرَ ناصـرٍ ... علـى حـينِ خـذلانِ اليمـينِ شـمالَها

فـإنْ أنـتُمُ لـم تحفظـوا لمـودَّتِي ... ذمامًـا، فكونـوا لا عليهـا ولا لَهـا[٣]

---

(١) مَوْسُوعَةُ الشِّعْرِ (٥/ ٧٤٢).

(٢) (حَسَنٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤/ ٣٠) وأبو دَاودَ (٤٨٨٤) وَحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٥٦٩٠).

(٣) ديوانُ ابنِ الرُّوميِّ (٧١).

١٧- تَتَبُّعُ العثراتِ:

إن يسمعوا سَيِّئًا طارُوا بِهِ فَرَحًا مني، وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا(١)

من أسبابِ الخذلانِ تَتَبُّعُ عثراتِ الناسِ وعوراتِهم قال اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحُجُراتُ: ١٢].

وعن أبي بَرْزَةَ الأسلميِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا معشر من آمَنَ بلسانِهِ ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَهُ، لا تغتابوا المسلمين، ولا تَتَبَّعُوا عوراتِهم؛ فإنَّه من أَتْبَعَ عوراتِهم يَتْبَعِ اللهُ عوراتِهِ، ومن يَتْبَعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ في بيتِهِ**»(٢).

فأَيُّ خذلانٍ أَشَدُّ من أَنْ يكونَ اللهُ خَصْمَكَ فإذا كُنْتَ لا تُحِبُّ ذلك فلا تَتَبَّعْ عوراتِ المسلمين وعَثَراتِهم وأشدُّ ذلكَ تَتَبُّعُ عَثَراتِ أهلِ العلمِ لا بِقَصْدِ التصحيحِ والتنبيهِ وإنما بقَصْدِ الطَّعْنِ والتزهيدِ وهذا من أعظمِ أسبابِ الخذلانِ لأنَّ العلماءَ هم أولياءُ اللهِ.

والرسولُ ﷺ يقولُ فيما يرويهِ عن رَبِّهِ: «**من عادىٰ لي وليًّا فقد آذَنْتُهُ بالحَرْبِ**»(٣).

فأَيُّ خذلانٍ أعظمُ من أَنْ يَنْصُبَ المرءُ نَفْسَهُ لمحاربةِ رَبِّه بمعاداةِ أوليائِهِ فاللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

١٨- إطلاقُ البَصَرِ فيما لا يَحِلُّ(٤):

وغُضَّ من طرفِكَ إنْ خِفْتَهُ فحاجِبُ الشَّهْوَةِ غَضُّ الْبَصَرْ(٥)

---

(١) عُيُونُ الأَخْبَارِ (٣/ ٨٤).

(٢) (حَسَنٌ صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ أبو دَاودَ (٤٨٨٠) وقال الأَلبانيُّ في «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٥٤٩) حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ.

(٤) انظر كتابي «فتنة النظرِ» ففيه: «آلف من غرابِ عقدةٍ» (جمهرة الأمثال) (١/ ١٩٩) والعقدةُ أرضٌ كثيرةُ الشجرِ فلا يكادُ الغرابُ يفارِقُها لخِصْبِها.

(٥) ديوان البارودي (٤٦٦).

إطلاقُ البَصَرِ فيما لا يَحِلُّ من النساءِ والمُرْدانِ من أسبابِ الخُذْلانِ وقد أَمَرَ اللهُ ﷻ بِغَضِّ البَصَرِ فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النورُ: ٣٠].

وقال ﷻ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النورُ: ٣١].

فَقَرَنَ غضَّ البَصَرِ بحفظِ الفَرْجِ، لأَنَّه يُسَبِّبُهُ ويؤولُ إليه والصبرُ على غَضِّ البَصَرِ أيْسَرُ من الصبرِ على أَلَمِ ما بَعْدَهُ(١).

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا أَمْرٌ من اللهِ لعبادِهِ المؤمنين أَنْ يَغُضُّوا من أبصارِهم عَمَّا حُرِّمَ عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباحَ لهم النَّظَرَ إليه، وأَنْ يَغُضُّوا أبصارَهم عن المحارِمِ، فإنِ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ البَصَرُ على مُحرَّمٍ من غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عنه سريعًا»(٢).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن نظرِ الفُجاءَةِ، فأمَرَني أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي»(٣).

وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعليٍّ: «**يا عليُّ، لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ؛ فإنما لك الأولىٰ وليس لكَ الآخرةُ**»(٤).

ولقد أَحْسَنَ الذي يقولُ:

كُلُّ الحوادثِ مبدأُها من النَّظَرِ ... ومُعْظَمُ النارِ من مستَصْغَرِ الشَّرَرِ

كم نظرةٍ فتكتْ في قلبِ صاحبِها ... فتكَ السهامِ بلا قوسٍ ولا وَترِ؟

---

(١) الجواب الكافي لابن القيم (١٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١٠/ ٢١٢).

(٣) «رواه مسلم» (٢١٥٩).

(٤) (حسن) أخرجه أحمد (٢٢٩٩١)، وأبو داود (٢١٤٩) وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (١٨٦٥): حسن.

والعبـــدُ مـــا دامَ ذا عـــينٍ يُقَلِّبُهـــا ... في أعـينِ الغيـدِ موقـوفٌ على الخَطَـرِ
يَـــسُرُّ مُقْلَتَـــهُ مـــا ضَـــرَّ مُهْجَتَـــهُ ... لا مرحبًـــا بـــسرورٍ عـــادَ بالـــضَّرَرِ

وقال آخَرُ:

يـــا راميًـــا بـــسهامِ اللَّحْـــظِ مجتهـــدًا ... أنـــت القتيـــلُ بمـــا ترمـــي فـــلا تُـــصِبِ
وباعـــثُ الطَّـــرفِ يرتـــادُ الـــشفاءَ لـــه ... احْـــبِسْ رَسُـــولَكَ لَا يَأْتِيـــكَ بالْعَطَـــبِ

وأمَّا النظرُ إلىٰ الشابِّ الأمردِ، فقد أجمعَ العلماءُ - رحمهم اللهُ - علىٰ تحريمِ النظرِ إلىٰ الأَمْرَدِ إذا اقترنتِ الشهوةُ بهذه النظرة.

قال الرمليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويَحْرُمُ نَظَرُ أمْرَدٍ بِشَهْوَةٍ إجماعًا»(١).

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحْرُمُ علىٰ الرَّجُلِ النظرُ إلىٰ وجْهِ الأَمْرَدِ إذا كان حَسَنَ الصُّورةِ سواءٌ كان نَظرةً لِشَهْوةٍ أم لا، سواءً أمِنَ الفِتْنَةَ أم خَافَها، هذا هو المذْهَبُ الصَّحِيحُ المُخْتَارُ عِنْدَ العُلَمَاءِ المحقِّقِينَ، نصَّ عَلَيْه الشَّافِعيُّ، وحُذَّاقُ أَصْحَابه - رحمهم اللهُ تعالىٰ -، ودَليلُه: «أنَّه في معنىٰ المرأَةِ، فإنَّه يُشْتَهَىٰ كما تُشْتَهَىٰ، وصورتُهُ في الجَمالِ كصورةِ المرأةِ، بل ربَّما كان كثيرٌ مِنْهم أحْسَنَ صُورَةً من كثيرٍ من النساءِ؛ بَلْ هُمْ في التَّحْريمِ أولىٰ لِمَعْنًىٰ آخَرَ، وهو يَتَمكَّنُ في حَقِّهِمْ مِنْ طَرْقِ الشَّرِّ مَا لا يَتَمكَّنُ مِنْ مِثْلِه في حقِّ المرأةِ، واللهُ أعْلَمُ»(٢).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ - رحمَهُ الله تعالىٰ -: «النَّظَرُ إلىٰ المُرْدَانِ ثلاثةُ أقْسَامٍ:

أحَدُهما: ما تَقْترِنُ به الشَّهْوَةُ فَهُو مُحَرَّمٌ بالاتِّفَاقِ.

---

(١) «نِهَايةُ الْمُحْتَاجِ في شَرْحِ الْمنْهَاجِ» (٦/ ١٨٨).
(٢) «شَرْحُ مُسْلِمٍ» للنَّوَوِيِّ (٤/ ٤١ - ٤٢).

والثاني ما يُجْزَمُ أنه لا شَهْوةَ مَعَهُ كَنَظَرِ الرَّجُلِ الْوَرِعِ إلىٰ ابنِهِ الْحَسَنِ وابنتِهِ الْحَسَنَةِ وأُمِّهِ الْحَسَنَةِ فهذا لا يَقْتَرِنُ بِهِ شَهْوَةٌ إلَّا أنْ يكُونَ الرَّجُلُ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ ومتَىٰ اقترنَتْ بِهِ الشَّهْوةُ حَرُمَ....

الثالثُ: النظرُ إليه بغَيْرِ شَهْوَةٍ؛ لكنْ مع خَوْفِ ثورانِهَا ففيه وجهانِ في مذهب أحمدَ أَصَحُّهُمَا وَهُو المحكيُّ عَنْ نَصِّ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّه لا يَجُوزُ.

والثاني: يَجُوزُ؛ لأنَّ الأصْلَ عَدَمُ ثَورَانِهَا، فَلَا يَحْرُمُ بالشَّكِّ بَلْ قَدْ يُكْرَهُ. والأوَّلُ هو الرَّاجِحُ»[1].

ولعلَّك - أخي - تجدني قد أطلتُ هُنا وما ذاك إلا أنه قد أَكْثَرَ العلماءُ من ذكرِ الحكاياتِ والقِصَصِ حولَ عاقبةِ النَّظَرِ إلىٰ ما يَحِلُّ فكم من نظرةٍ أورثَتْ في القلبِ حَسْرَةً وكم من نظرةٍ تركَتِ القلبَ في بلابِلَ وكم من نظرةٍ كانت عاقبتُها خذلانَ صاحِبِها فجاءَهُ في أولِ شبابِهِ أو وسَطِ عُمُرِهِ وآخِرِهِ، وما زالَ الخُذلانُ مصاحبًا لمَنْ ابتلاهُ اللهُ بالنظرِ إلىٰ النساءِ والمردانِ سِيَّما مَنْ لم يُوَفَّقْ منهم لِتوبةٍ فكيفَ بِمَنْ وَقَعَ في حبائِلِهم نسألُ اللهَ السلامةَ. والموفَّقُ من وفَّقَهُ اللهُ لتركِ المردانِ وعَدَمِ الثِّقَةِ بالنفسِ فَمَنْ وَثِقَ بنفسِهِ كَمَنْ وَثِقَ بعدوِّهِ ومن طريفِ ما ذكَرَهُ موسىٰ الحجاويُّ في شَرْحِ الآدابِ: «وَجَدْتُ في ظَهْرِ ورقةٍ في كتابٍ أبياتًا منظومةً كأَنَّها واللهُ أعلمُ جوابُ سؤالِ رَجُلٍ كان يُعلِّم أولادًا مُردًا فخافَ أَنْ تَميلَ نفسُهُ إليهم أو كادتْ تميلُ، وهذا ما وَجَدْتُ:

أيـا سـائلًا بـاللهِ إن كنـتَ ذا تُقًـى ... وترجـو ثـوابَ اللهِ في جَنَّـةِ الخُلْـدِ

(١) «الْفَتَاوىٰ» (١٥/ ٤١٩) باخْتِصَارٍ يَسِيرٍ.

فإيـــاكَ والأحـــداثَ لا تقـــربَنَّهُمْ ... ولا تُرْسِلَنَّ الطَّرْفَ فيهم على عَمْدِ
وإرســالُ مِنْـكَ الطـرفَ لا تحقِرَنَّـهُ ... ففـي ضِـمْنِهِ سـهمٌ يفـوقُ علـى الهنـدِ
فإنَّـكَ إنْ أرسـلْتَ طرفَـكَ رائـدًا ... تُمتِّعُـهُ يـا صـائِحِ بالنـاعِمِ الخـدِّ
تبـوءُ بـإثمٍ ثُـمَّ تُـسْلَبُ أنعمًـا ... ثلاثًـا بِهِـنَّ اللهُ يهـدي إلـى الرُّشْـدِ
حـلاوةَ إيمـانٍ ونـورَ فِراسـةٍ ... وثالثُهـا إيمـانُ ذي القـوةِ الجَلْـدِ
فمـا بعـد ذا الخُـسْرانِ رِبْـحٌ فخلِّهِـمْ ... يُعلِّمْهُـمُ ذو عِفَـةٍ حَـسَنُ القَـصْدِ[1]

١٩- الكَذِبُ[2]:

إذا عُـرِفَ الكَـذَّابُ بالكِـذْبِ لـم يَكَـدْ ... يُـصَدَّقُ في شـيءٍ وإنْ كـان صـادقًا[3]

من أسبابِ الخذلانِ الكَذِبُ؛ لأنَّهُ أمارةُ النِّفَاقِ ودليلُ ضَعَةِ النَّفْسِ وحقارةِ الشَّأْنِ.

فعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالك قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**عليكم بالصِّدْقِ؛ فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلىٰ البِرِّ، والبِرُّ يهدي إلىٰ الجنةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتىٰ يُكْتَبَ عند اللهِ صِدِّيقًا.**

وإياكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يهدي إلىٰ الفجورِ، وإنَّ الفُجُورَ يهدي إلىٰ النارِ، وإنَّ الرجُلَ ليكذبَ حتىٰ يكتبَ عند اللهِ كذَّابًا»[4].

---

(١) «عوائقُ في طَرِيقِ الْعُبُودِيةِ» عبد الكريم الحميد (٥٠).

(٢) انظر كتابي: «تاج المروءة» ففيه حديثٌ لو نَقَرْتَهُ لطَنَّ وموضوعُهُ «الصدقُ والكذبُ».

عَلَـى رأس عَبْـدٍ تـاج غَـرٍّ يزينـه ... وفي رجـل حـرٍّ قيـد ذل يـشينه

(٣) «أدب الدنيا والدين» (٢٦٥).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧).

فتأملْ كيفَ يؤدِّي الكَذِبُ إلىٰ الخذلانِ وأَيُّ خُذْلانٍ أشْنَعُ من أَنْ يُكْتَبَ عندَ اللهِ كَذَّابًا.

مع ما فيه من إذهابِ البهاءِ والمروءةِ من الرجالِ، كما قيلَ:

وما شيءٌ إذا فكرتُ فيه ... بأَذْهَبَ للمروءةِ والجمالِ

من الكذبِ الذي لا خَيْرَ فيه ... وأبْعَدَ بالبهاءِ من الرجالِ[1]

٢٠- الظُّلْمُ[2]:

لا تظْلِمَنَّ إذا ما كُنْتَ مقتدرًا ... فالظلمُ يرجعُ عُقْبَاهُ إلى النَّدَمِ

ومن أسبابِ الخذلانِ الظُّلْمُ والظلمُ أنواعٌ ثلاثَةٌ:

١- ظلمُ العبدِ نفسَهُ بالشِّرْكِ.

٢- ظلمُ العبدِ نَفْسَهُ بوقوعِهِ في مظالِمِ العبادِ.

٣- ظلمُ العبدِ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وبين رَبِّهِ.

فظلمُ العبدِ نَفْسَهُ بالشِّرْكِ هو أعظمُ أنواعِ الظُّلْمِ؛ لقولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمانُ: ١٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلك علىٰ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقالوا: أَيُّنا لا يظلمُ نَفْسَهُ؟! فقال

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٢٦١).

(٢) انْظُرْ كِتَابي «ظلمات الظلم» ففيه مزيد بيان، وزيادة لمستزيد ومتىٰ ظفرت به ظفرت يداك بالمُنَىٰ.

هنيئًا لِلَيْلَى مُهْجَةٌ ظَفِرت بها ... وتَزْوِيجُ لَيْلَى حِين حَانَ ارتِحالُها

رسولُ اللهِ ﷺ: «**ليس هو كما تظُنُّونَ، إنَّمَا هُوَ كما قال لقمانُ لابنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾**»(١).

وهذا الظلمُ هو الذي يُخَلِّدُ صاحبَهُ في النار.

والظلمُ الثاني وهو ظلمُ العبدِ نَفْسَهُ بوقوعِهِ في مظالِمِ العبادِ وهو أَخَفُّ من الأولِ كونَهُ لا يُخَلِّدُ صاحبَهُ في النارِ لو دَخَلَهَا وهو فوقَ ظلمِ العبدِ نَفْسَهُ بينه وبينَ ربِّهِ في كونِ عُقُوبَتِهِ لا تَزُولُ إلا بِرَدِّ المظالمِ إلىٰ أهلِها واستحلالِهم منها، وإلَّا كانَ القصاصُ يومَ لا دينارَ ولا دِرْهَمَ، وإنما التعامُلُ يكونُ بالحسناتِ والسَّيِّئَاتِ.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كانت له مظلمةٌ لأحَدٍ من عرضِهِ أو شيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ منهُ اليومَ، قَبْلَ أَلَّا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ، إنْ كان له عَمَلٌ صالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مظلمتِهِ، وإن لم يَكُنْ له حسناتٌ، أُخِذَ من سيئاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه**»(٢).

والظلمُ الثالثُ: ظلمُ العَبْدِ نَفْسَهُ بينَهُ وبين رَبِّهِ وهذا الظلمُ أَخَفُّ أنواعِ الظلمِ، لكنْ لا ينبغي التساهُلُ بشأنه، فإنَّ الذنوبَ متىٰ اجتمعتْ علىٰ العبدِ - وهو يستهينُ بشأنها - أَهلكَتْهُ.

لا تَظْلِمَنَّ إذا مـا كُنْـتَ مقتـدرًا ... فـالظُّلْمُ مَرتَعُـهُ يفـضي إلـى النَّـدَمِ
تنـامُ عينُـكَ والمظلـومُ مُنْتَبِـهٌ ... يـدعو عَلَيـكَ وعـينُ اللهِ لـم تَـنَمِ(٣)

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ (١٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٧).

(٣) دواوين الشعر العربي (١١/ ٢٠٩).

٢١- التَّهاونُ بالصَّلَاةِ:

هِـيَ الـصلاةُ فـلا تُهْمِـلْ جماعَتَهـا مـع جمعـةٍ فَرْضُـها مـا فيـه إنكـارُ[١]

من أسبابِ الخذلانِ التهاونُ بالصلاةِ ولا سيَّما الجُمُعَةُ.

فعن أبي قتادةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثلاثَ مرَّاتٍ من غيرِ ضرورةٍ طُبِعَ علىٰ قلبِهِ**»[٢]. أي تَرَكَ صلاتَها ثلاثَ جُمَعٍ متواليةً.

طُبِعَ علىٰ قلبِهِ: أي خَتَمَ عليه وغشاهُ ومَنَعَهُ الطاعةَ أو جَعَلَ فيه الجَهْلَ والجفاءَ والقسوةَ أو صَيَّرَ قلبَهُ منافقًا وهذا نهايةُ الخذلانِ.

قال ابنُ عبد البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ: «والخَتْمُ علىٰ القلوبِ مِثْلُ الطَّبْعِ عليها وهذا وعيدٌ شديدٌ؛ لأنَّ من طُبِعَ علىٰ قلبِهِ وخُتِمَ عليه لم يعرفْ معروفًا ولم يُنكرْ منكرًا»[٣].

٢٢- عدمُ صلاحيةِ المَحَلِّ:

كَـمْ مُـصْعَبٍ عَـسِرِ الْمَقَـادةِ قُدْتَـهُ نَحْـوَ الـرَّدى بخـزائمِ الْخَـذْلانِ[٤]

من أسبابِ الخذلانِ عَدَمُ صلاحيةِ المَحَلِّ أَيْ صلاحيةِ النفسِ لقبولِ الخيرِ الذي هو توفيقُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإذا لمْ يصلحْ للتوفيقِ حلَّ فيه الخذلانُ.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: «ومما ينبغي أَنْ يُعْلَمَ أنَّ أسبابَ الخذلانِ من بقاءِ النفسِ

---

(١) «مجموعةُ الْقَصَائِدِ الزُّهْدِيَّةِ» (١/ ٥٠٥).

(٢) (صَحِيحٌ) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٢٩٢٥)، وصَحَّحَه الأَلْبَانيُّ في «صَحيحِ الْجَامِعِ» (٦١٤٠).

(٣) «الاسْتِذْكَارُ» (٢/ ٥٥).

(٤) خَرِيدَةُ الْقَصْرِ (٢/ ٥٧٣).

علىٰ ما خُلِقَتْ عليه في الأَصْلِ وإهمالِها وتخليتِها، فأسبابُ الخذلانِ منها وفيها، وأسبابُ التوفيقِ مِنْ جَعْلِ اللهُ ﷻ لها قابلةً للنعمةِ، فأسبابُ التوفيقِ منه ومن فَضْلِهِ وهو الخالقُ لهذا وهذا»[1].

والذي ينجي من هذا هو الأخْذُ بأسبابِ التوفيقِ كُلِّها والانْطراحُ بين يَدَيِ اللهِ لائذًا بِجَنَابِهِ فمَنْ أَدْمَنَ الطروقَ يوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ له.

(١) «الْفَوائدُ» (٢٠٧).

الخَاتِمَةُ

فاسْـــلمْ ودُمْ في غبطـــةٍ وســـعادةٍ وتُـــدامُ مـــأمولًا وأنـــتَ مُوَفَّـــقُ[١]

بعد هذا التَّطوافِ مَعَكَ نأتي إلىٰ نهايةِ المطَافِ وليس بعد العلمِ إلا العَمَلُ ولا يَلِدُ العملُ إلا من لقاحِ الجِدِّ فـ «شَدِّدْ لَهُ حيازيمَكَ»[٢] واجمعْ له جراميزَك»[٣] ولْيَكُنْ حالُكَ:

تـأَخَّرْتُ عـن قـومي ولا غَـرْوَ أَنَّنـي سأسْـبِقُهم بالجِـدِّ والجِـدُّ مِعـوانُ[٤]

وأنكَ - أخي الكريمَ - سوفَ تَجِدُ أو قد وَجَدْتَ هِنَةً تُغْتَفَرُ أو تقصيرًا يُحْتَمَلُ والاستقصاءُ فرقةٌ ورحمَ اللهُ من أهدىٰ إليَّ عيوبي وذكَّرني بها علىٰ سترٍ بيني وبينَهُ.

ذَكِّـــرْ أخـــاكَ إذا تناســـى واجبًـــا أَوْ عَـــنَّ في آرائِـــهِ تقـــصيرُ

فـالرأيُ يَـصْدَأ كالحـسامِ لعـارضٍ يَطْـرأْ عليـهِ وصَـقْلُهُ التَّـذكيرُ[٥]

وختامًا وفَّقَنا اللهُ جميعًا للعلمِ النافِعِ والعملِ الصالِحِ والتمسُّكِ بِالسُّنَّةِ والثباتِ عليها وجعلنا هداةً مهتدين وآخِرُ دعوانا أَنْ الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين.

---

(١) «الأدبُ الْعَرَبِيَّةُ في الْقرنِ التَّاسِعِ» (٢٥٩).

(٢) «الأمثالُ العربيةُ» (١١٩) وقال عقبةُ: يضربُ للرجلِ يُؤْمَرُ بالجِدِّ في أمْرِهِ».

(٣) «الأمثال لابنِ سلامٍ» (٢٣٠) وقال قَبْلَهُ: «ومن أمثالِهم إذا أمروا الرَّجُلَ بالجِدِّ في الأمرِ قالوا: ...».

(٤) «تتمةُ اليتيمةُ» (٤/ ٣٨٠).

(٥) «التذكرةُ السَّعدِيَّةُ» (٤٠).

الفهرس

المُقَدِّمةُ ٥
تعريفُ التَّوفِيقِ ٦
الفرقُ بَيْنَ التَّوفِيقِ والْخُذْلانِ..... ٦
التوفيقُ بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ..... ٧
التَّوفِيقُ والخذلانُ عنْدِ أهْل السُّنَّةِ ٨
علاماتُ التَّوفِيقِ..... ٩
- الاستمرارُ عَلىٰ عَمَلِ الْخَيْرِ ٩
- الإيمانُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ ١٠
- التَّوبَةُ ١١
- الدَّعْوَةُ إلىٰ اللهِ ١٢
- حُسْنُ العِشْرَةِ..... ١٣
- تَذَكُّرُ الموتِ ١٣
- حُسْنُ الْخَاتِمَةِ..... ١٤

علاماتُ الْخُذْلانِ ١٦
أَسْبَابُ التَّوفِيقِ ١٧
- الإخْلاصُ والْمُتَابَعَةُ..... ١٧
- صحةُ التَّوحِيدِ..... ١٩
- الإيمانُ بِقَدَرِ اللهِ وقضائِهِ ٢٠
- حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ ٢١
- التَّوكُّلُ عَلىٰ اللهِ ٢٢
- التَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَولِ والقُوَّةِ إلَّا بِاللهِ .٢٣
- الْيَقِينُ بِاللهِ ٢٤
- البراءةُ مِنَ الْبِدَعِ وأَهْلِهَا ٢٤
- مُجَالِسَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وأَخْذُ الْعِلمِ عَنْهُمْ ٢٧
- طَلَبُ الْعِلْمِ النَّافِعِ ٢٩
- الرُّجُوعُ إلىٰ الْعُلَمَاءِ.....٣٠
- الصِّدْقُ مَعَ اللهِ ٣٢
- الافْتِقَارُ إلىٰ اللهِ ٣٣
- الإنَابَةُ إلىٰ اللهِ.....٣٤
- السلامة مِنْ غِلِّ الْقلُوبِ ٣٥
- شُكْرُ النِّعْمَةِ..... ٣٧
- المُسَارَعةُ إلىٰ الْخَيْراتِ ٣٨
- إرادةُ الآخِرةِ.....٣٩
- الانْطِراحُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ.....٤٠
- تَدَبُّرُ الْقُرآنِ ٤٠
- التَّقَرُّبُ إلىٰ اللهِ بِالنَّوافِلِ.....٤١
- اغْتِنامُ البكور ٤٢
- لزومُ السَّكِينةِ والوقَارِ ٤٣

- الأَخْذُ بالأَسْبَابِ ٤٤
- الصَّدَقَةُ ٤٥
- بِرُّ الوَالدينِ ٤٦
- صِلَةُ الرَّحِمِ ٤٧
- الْعَدْلُ ٤٨
- الرِّفْقُ ٥٠
- الْعَفوُ عَنِ النَّاسِ ٥١
- الاسْتِشَارَةُ ٥٢
- صَلاةُ الاسْتِخَارَةِ ٥٤
- المُحَافَظَةُ عَلىٰ الأَذْكَارِ اليوميَّةِ ٥٥
- الدُّعاءُ ٥٦
- أَهْلِيَّةُ الْمَحَلِّ ٥٧
- التَّوفِيقُ للأَسْبَابِ المُتَقَدِّمَةِ ٥٨

أَسْبَابُ الْخُذْلَانِ ٦٠

- التعلُّقُ بِغَيْرِ اللهِ ٦٠
- الرِّيَاءُ وملاحظَاتُ المَخْلُوقِينِ ٦٠
- فَسَادُ النِّيَّةِ ٦١
- فَسَادُ الْقَلْبِ ٦٢
- الْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ٦٢
- مُخَالَفَةُ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ ٦٣
- الْعُجْبُ ٦٤
- الذُّنُوبُ والمعاصي ٦٥
- المجاهرةُ بالْمعَاصِي ٦٦
- التَّعَرُّضُ لِلْفِتَنِ ٦٧
- اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ ٦٩
- الْفَسَادُ الْخُلُقِيُّ ٧١
- صُحْبَةُ السَّفَلَة ٧٢
- تَرْكُ الأَمْرِ بالمعروفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ٧٣
- التَّأخيرُ عَنِ الصَّفِّ الأَوَّلِ ٧٥
- خذلانُ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ الْمُسْلِمِ ... ٧٦
- تَتَبُّعُ الْعَثَرَاتِ ٧٧
- إطلاقُ البَصَر فيما لا يَحِلُّ ٧٧
- الْكَذِبَ ٨١
- الظُّلْمُ ٨٢
- التهاونُ بالصَّلاةِ ٨٤
- عَدَمُ صَلاحِيَّةِ المَحَلِّ ٨٤

الْخَاتِمَةُ ٨٦

الْفهْرسُ ٨٧